الشيخ بسام جرار

مقالات

مركز نون للأبحاث والدراسات القرآنية

المقدمة

الدين هو الذي يعطي الحياة معنى، وبغير الدين يصبح كل شيء فاقداً لمعناه وحكمة وجوده. كثيراً ما نُمثّل لهذا المعنى بالأجهزة الكهربائية التـي إن وصـلت بالكهرباء كان لكل قطعة منها معنى ووظيفة. وفي الوقت الذي ننفصل فيه الكهرباء عن الجهاز تفقد كل قطعة معناها ووظيفتها، لذا كان الدين ضرورة من ضرورات الحياة البشرية على مستوى الفرد والمجموع. من هنا لم يجد علماء مقارنة الأديان أمماً بغير دين، ولكنهم وجدوا بعض الأمم البدائية التي ليس عندها علوم أو فنون.

لكن ما قيمة وتأثير الدين إذا لم يملك الحجة والبرهان على صلته با عـز وجل، وعلى وجه الخصوص في عصرنا هذا والعصور القادمة، التي يتوقـع أن يتعاظم فيها الوعي البشري، وبالتالي يصبح الإنسان أكثر ميلاً إلى تبني الأفكـار والعقائد القائمة على البرهان، وإن كنا لا نتوقع أن يتوقف الناس عن أخذ عقائدهم وأديانهم وراثة عن آبائهم، وحتى هؤلاء يحتاجون إلى البرهان العقلي إضافة إلـى ميلهم القلبي العاطفي، وتبقى فرصة الإسلام هي الأكبر لما يتميز به من شـمولية في الخطاب، لذا يبقى هو الدين الوحيد الذي يطْلُب منه الجميع أن يكـون كـاملاً، وأن يعطي الإجابة عن كل تساؤل.

لم ينقض القرن العشرون حتى شهد عودة عارمة للإسلام، وذلـك نظـراً لتعاظم الوعي، وإن كنا لا ننكر أن حملات التغريب في العالم الإسلامي قد أساءت إلى حقيقة الإسلام في وعي الناس، وعلى وجه الخصوص المثقفين، وبشكل أكبـر الدارسين للعلوم الإنسانية، والتي هي مما مسه الدين الإسلامي بشكل مباشر، ولكن الراصد للنتائج عبر أكثر من 150 عاماً من حملات التزييف والتشـكيك يجـد أن هذه الحملات الظالمة وغير الموضوعية ساهمت في خلق هذا الوعي، وسـرعت في العودة إلى الذات، ولا يضر الفكرة الصحيحة أن يثار حولهـا زوابـع النقـد والتفنيد، لأن هذا يساعد على جلاء الصورة، وهذا ما حصل على أرض الواقـع.

أما ضحايا حملات التغريب الذين لم يخلُ منهم مجتمع إسلامي، فهم قلّـة لـديهم القابلية، بغض النظر عن وجود حملات تشكيك، وهذا أمر يمكن ملاحظته للدارس المتفرس. أما أولئك الذين يبحثون عن الحقيقة فتضل بهم الطريق أحياناً، فـإنهم لا يلبثون أن يثوبوا إليها.

في هذه الرسالة رأينا أن نكتب في بعض المسائل التي تثار فـي مجـالات الدراسات الثقافية والتاريخية، وعلى وجه الخصوص في بعض الجامعات. وفـي رأينا أن الكثير من الناس ينفرون من المطولات، لذلك عمدنا إلى تكثيف الفكرة في صفحات قليلة، مع حرصنا على أن تكون مغنية بقدر الإمكان.

الذي نرجوه من الأخ القارئ أن يقرأ بتمهل وتركيز. ونحن في مركز نون على استعداد دائم – إن شاء ا – للإجابة عن أسئلة الأخوة القراء، وعلى استعداد للحوار والمناقشة في أية مسألة تُشْكِل على فهم مهتم يرغب في معرفة الحقيقة.

وا هو الموفق، وهو ولي المتقين.

بسام جرار

شعبان 1421 هـ

تشرين الثاني 2000 م

الأئمة من قريش

يرجع تاريخ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام على وجه التقريب إلى ما يقارب 1800 ق.م. وهذا يعني أن الفترة بين إسماعيل عليه السلام وبعثة الرسول ﷺ تقارب (2400) سنة . وإذا عرفنا أن قبائل العرب كانت تحج إلى مكة في كل عام ، وكذلك كانت تعتمر وتزور البيت المعظّم، ناهيك عن ما كان يحصل من أسواق تجارية وأدبية كانت تجمعهم في كل عام ، فمن البدهي أن ينتج عن هذا الاختلاط والاحتكاك عبر آلاف السنين الأمور الآتية :

1.اجتماع العرب على عقيدة وشريعة دينية جعلهم يشعرون بأنهم أمة، ومعلوم تاريخياً أن العرب قبل الاسلام لم يجتمعوا في دولة واحدة ، ولم يحكموا بنظام سياسي واحد، كما هو الحال عند الفرس والرومان واليونان وغيرهم . وعليه يكون اجتماعهم في العبادة، واجتماعهم على قبلة واحدة قد خلق لديهم الشعور بأنّهم أمة . وعندما جاء الإسلام جمعهم على عقيدة واحدة وشريعة واحدة ، ثم جمعهم ولأول مرة في التاريخ في نظام سياسي واحد، ودولة واحدة ، وهذا يقودنا إلى القول بأن الدين هو الذي شكّل ما يسمى بأمة العرب ، سواء أكان ذلك قبل الإسلام أو بعد نزول الإسلام .

2. إن اجتماع العرب لأكثر من مناسبة عبر (2400) سنة لا بد أن يخلق لغة مشتركة ، ولا بد أن تكون لهجة قريش (أهل مكة) هي اللهجة المشتركة بين قبائل العرب . ومن هنا ندرك بعض أسرار نزول القرآن الكريم باللغة العربية وبلهجة قريش . فهي اللهجة التي يفهمها كل العرب .

3. كانت قريش تقوم بإطعام وسقاية الحجاج العرب الوافدين من كل أنحاء الجزيرة العربية ، وعندما يستمر هذا التقليد لآلاف السنين (2400) فإنه يجعل العرب كل العرب يجلّون قريشاً ، وتبلورت مع الأيام لقريش مكانة راسخة في

ضمير العربي، وأصبحت لها السيادة الدينية التي لا يشك فيها أحد، وهذا يكشـف لنا بعض أسرار جعل مكة مهبطاً للوحي ، وكذلك جعل الرسول ﷺ قرشياً .

4. نتيجة لمكانة قريش الدينية ، ونتيجة لإكرام قريش وفود العرب التـي تقـدس البيت ، ونتيجة لسدانة قريش لهذا البيت، كل ذلك جعل قوافل قريش آمنة من دون القوافل في الجزيرة العربية، وأصبح لها قداسة تستمد من قداسة البيت، كيـف لا وهذه القوافل تعود بالخير على أهل مكة، فينعكس على حجاج بيت ا الحـرام ، وهذا يعني أن تكون علاقة قريش بباقي العرب علاقة سلمية لا يشوبها حرب ، في حين كانت الجزيرة العربية مشحونة بالخلافات والحروب بين القبائل المختلفـة . هذا الوضع المتميز لقريش يكشف لنا بعض أسرار جعل مكة مهبطاً للوحي علـى رسولٍ قرشي، فحاجز العداوة غير موجود. وكيف لعبس أن تؤمن ، مثلاً ، لو كان الرسول من ذُبيان مع ما كان بينهما من عداوة وحروب؟!

5.بقيت قبائل العرب مترددة في موقفها من الإسلام، بل معادية له ، حتى فتحـت مكة وأسلمت قريش، عندها رأينا كل القبائل العربية تقبل على الإسلام، ويرجـع هذا إلى المكانة التي لقريش في نفوس العرب ، والتي ترسـخت عبـر القـرون المتطاولة . ويعبر القرآن الكريم عن هذه الحقيقة بأبلغ بيان في سورة النصر ﴿ إذا جاء نصر ا والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين ا أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ﴾ .

6. عندما توفي الرسول ﷺ ارتدت قبائل العرب المختلفة. والمتـدبر يلاحـظ أن الارتداد لم يكن عن الإسلام ، بل عن التابعية للدولة . نعم فالعرب لم تجمعها دولة في يوم من الأيام. واستقلالية القبائل هو شيء راسخ. وكان تصـور العـرب أن تابعيتهم كانت للرسول عليه السلام بصفته رسولاً ، ويبدو أنهـم لـم يلحظـوا أن الرسول عليه السلام قد أقام دولة ، لـذا وجـدوا أن لا تنـاقض بـين إيمـانهم واستقلاليتهم عن صيغة الدولة ، لأنهم كانوا قبل الإسلام يجتمعون في عبادة الحج والعمرة من غير أن يمس هذا باستقلالهم، وهم اليوم يمكـن أن يبقـوا مسـلمين يصومون ويصلون ويحجون إلى مكة، ولكن لا داعي أن يجبي أبـو بكـر مـنهم الزكاة والتي هي عنوان التابعية.

ومما يدل على ما قلناه من أن ردتهم كانت عن طاعة الدولة ، ولـم تكن عن الإسلام الأمور الآتية :

أ.مراجعة عمر بن الخطاب لأبي بكر ، واستنكاره لقتل المسلمين ، حتى قال لـه أبو بكر رضي ا عنه فيما قال : (أجبار في الجاهلية خوار في الإسلام) وقال (وا لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه لرسول ا لقاتلتهم عليه).

ب.قول أبي بكر بأنّه سيقاتل من يفرق بين الصلاة والزكاة ، فـالخلاف إذن فـي الزكاة والتي هي عنوان الالتزام بالسلطة القائمة .

ج. حتى مسيلمة الكذّاب لم ينكر رسالة الرسول عليه السلام ، بـل جعـل نفسـه شريكاً في الرسالة ، لذا نجده يسأل أسيراً مسلماً فيقول : (ماذا تقول في محمـد؟ فقال الصحابي الكريم : رسول ا . قال مسيلمة : وأنا ؟ ...وللقصة تكملة لـيس هذا مقامها .

د. قال شاعر من المرتدين :

أطعنا رسول ا عشرين حجةً فيالعباد ا ما لأبي بكر

أيورثها بكراً إذا مات بعده فتلك وايم ا قاصمة الظّهر

واضح أن الشاعر يؤمن برسالة الرسول عليه السلام ، ولكنه لا يتصـور وجـود دولة ولا يتصور أحداً يمكن أن يحلّ محل رسول ا عليه السلام . ويبدو لـي أن هذا الالتباس جعل فريقاً من الناس يرفض الانصياع لسلطة الدولة الإسلامية .

1.لوحظ أن قريشاً هي التي تصدرت الجهاد لإعادة الأمور إلى نصابها ، وأنهـت ظاهرة التمرد العربي على سلطة الدولة ، يدعمها في ذلك مجتمع الأنصـار فـي المدينة المنورة ، ثم استطاعت قيادات قريش أن تقيم دولاً عظمى بمقـاييس تلـك العصور. كدولة الخلافة الراشدة، والأموية، والعباسية. وهذا الواقع يجلّي لنا حكمة الإسلام في جعل الخلافة ابتداء في قريش حيث يقول الرسول ﷺ (الأئمـة مـن قريش). وقد حسم هذا الحديث الخلاف الذي حصل في سقيفة بني ساعدة ، ومنـع أي مطالبات تهدد كيان الدولة الإسلامية الناشئة ، وحافظ على استمرار وصـعود الدولة الإسلامية، بالتفاف الناس حول قريش، وعدم ظهور مطالبات فـي أرجـاء الدولة الشاسعة، فلم نجد الفرس مثلاً يطـالبون بالخلافـة، حتـى أن أبـا مسـلم

الخرساني يسقط الخلافة الأموية، ولا يخطر بباله أن ينافس على السلطة، لأنه يعلم أن الأئمة من قريش. واليوم وبعد أن أصبح الإسلام عالمياً ، يعز على الاجتثاث ، وبعد أن أصبح الانتماء إلى قريش كالانتماء إلى آدم، من حيث بعد العهد وتكـاثر الناس ، إذ أصبحت قريش تُعد بالملايين ، بل لم يعد الانتساب إلى قريش يحظـى بصدقية ، فهل لا تزال القرشية من شروط الخليفة المسلم ، سواء أكانـت شـرط انعقاد أو شرط أفضلية ؟

المتدبر لحديث الرسول ﷺ يلاحظ أن هذا الشرط كان في البدايـة لحمايـة كيان الدولة واستمرارها، حتى تتجاوز مرحلة الخطر على ضوء واقع البشرية في تلك العصور . ويظهر ذلك عند التدقيق في نصوص الأحاديث التـي وردت ومنها :

أ.(الأئمة من قريش ما إذا حكموا عدلوا) حرف (ما) يبين المدى الذي تستمر فيه خلافة قريش ، ففي الوقت الذي ينحرف فيه الحكام من قريش عن مقاييس العـدل الشرعية ينتهي شرط خلافتهم ، وقد حصل هذا في التاريخ . ويقال هـذا الكـلام أيضاً في حديث:(الأئمة من قريش ما إن استرحموا رحموا).

أ.أما الحديث (الأئمة من قريش إذا حكموا عدلوا) ، فهو يخلوا من حـرف (مـا) الذي يبين النهاية والمدى . ولكنه يتضمن العلّة التي من أجلها كانت الخلافة فـي قريش ، والعلة هي "إذا حكموا عدلوا" وإذا زالت العلة زال المعلول.

فالحكمة الربانية التي جعلت الرسالة في العرب، وفي قريش ابتداء، تتجلى في جعل الخلافة في قريش، ويستمر ذلك إلى المدى الذي تؤمن فيه المخاطر على الإسلام. ومن ينظر في حرب المرتدين وكيف انتهت ، وقيام الدولـة الإسـلامية العظمى بعيداً عن الصراعات على السلطة بين الأمم التي دخلت الإسلام ، يـدرك بعض الحكم التي يتضمنها الحديث الشريف (الأئمة من قريش) ويدرك أيضاً أن هذا الشرط إلى مدى محدود، وقد كان ، بدليل أن خلافة بني عثمان هـي خلافـة صحيحة بإجماع العلماء ، ومعلوم أن بني عثمان ليسوا من قريش ، بـل ليسـوا عرباً، وهذه هي روح الإسلام ، والحمد رب العالمين .

فتنة عثمان

فتنة عثمان مثال نموذجي على فكر ساد في القرن العشرين ، ولا تزال ذيوله تنسحب على القرن الحادي والعشرين ، ولا زلنا نسمع ترديد مقولات كان لها صولة ، وإن كانت قد فقدت بريقها نظراً لسقوط الماركسية، ولتطور الوعي، ونظراً للصحوة الدينية التي باتت تشكل رأياً عاماً في بلاد العرب والمسلمين . وإذا ما قارنّا الفكر الماركسي بالفكر العلماني نجد أن الفكر العلماني أقرب إلى الموضوعية نسبياً من الفكر الماركسي ، والذي هو فكر أُصولي غير مرن ، وكان من ضرورات هذا الفكر أن يحارب الدين ، ويشكك في الخالق، لأن هذا مقدمة لا بد منها لنشر الفكرة الماركسية. من هنا كنا نجد أن الماركسيين هم أكثر من يتبنى التشكيك، ويحمل وزر تضليل الأجيال الشابة . ومعلوم أن الماركسية ترى أن لا موضوعية في الفكر ، لذا ليس عجيباً أن نراهم ينتقون من الروايات ما يشاءون ثم يعطون أنفسهم الحق الكامل بتحكيم ذواتهم في فهم الفكر والتاريخ ، ويدهشك أنهم يصدرون أحكاماً قاطعة غير قابلة للجدال، على الرغم من أن الفكر الماركسي يرى أن لا حقيقة موجودة في هذا الكون .

لم تعد الماركسية بحاجة إلى نقاش ، والمشكلة القائمة اليوم لدى بعض طلاب الجامعات، أن من كانوا يحملون الفكر الماركسي، ثم انتقلوا إلى تبني الفكر العلماني، اصطحبوا معهم مكوناتهم الفكرية السابقة، ثم هم لا زالوا يرددون الشبهات القديمة، ومنها شبهات تتعلق بالتاريخ الإسلامي، هذا التاريخ الذي يلهم الأجيال ويبني القيم، ومن هذه الشبهات بعض الملابسات التي أحاطت بمقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفّان رضي الله عنه .

دعيتُ إلى إلقاء محاضرة في قسم التاريخ بجامعة بيرزيت ، وكنت أعلم أن التاريخ يدرس من قبل عدد من المناهضين لتاريخ الأمة وحضارتها، وكان موضوع المحاضرة:(فتنة عثمان). بدأتُ المحاضرة بالآتي:" درست الروايات

التاريخية التي تتحدث عن الفتنة فوجدتها كلها ضعيفة، وعلى هذا الأساس لا يمكننا أن نعتمد على رواية منها ، وفي الحقيقة ليس لدينا شيء نركن إليه، إلا من نُتـف في كتب الحديث هي أصح ما ورد ، وهي تنسجم مع الصورة التـي لـدينا عـن الصحابة الكرام " ثم قلت : " عند هذا الكلام يمكن أن ننهي المحاضرة ، فأي شيء نعرف عن الفتنة ؟! " وبما أنّه لا يليق أن تكون المحاضرة دقائق، وإن كانت هذه الدقائق تأتي على أوهام تدرس على مدى محاضرات وفصول، لذا رأيت أن أكمل فقلت:" بعد دراسة الروايات الضعيفة وجدنا أن أقلها ضعفاً هي رواية شخص اسمه سيف، وهو شيعي المذهب ، أي يفترض أنّه متعصب ضد عثمـان والأمـويين، وعلى الرغم من ذلك كانت هي الرواية الأصح سنداً، فدعونا نستمع إلـى روايـة سيف هذا "وقمت بسرد الرواية بشـكل تفصـيلي. ويمكنـك أن تتوقـع اسـتياء الماركسيين والعلمانيين من هذه الرواية، لأنها تنقض الشبهات، وتفسر لك الأحداث بشكل يجعلك متفهماً ومقدراً للظروف والملابسات التي أحاطت بالفتنة .

يقولون دعونا نفكر وننتقد بعيداً عن التعصب ، ثم تكتشف أنهم يتعصـبون ويحاربون التفكير الموضوعي. يقولون:"قال الطبري في تاريخه " فهل يقولون إن الطبري كان يجمع كل ما قيل حول الفتنة بغض النظر عن صحته ، لأنـه كـان يسرد أسانيد الروايات، ويترك مسؤولية الحكم للدارس؟ وهل درسـوا الأسـانيد ، وناقشوا الروايات ثم اختاروا الأصح، أم أنهم اختاروا ما يـتلاءم مـع أفكـارهم السابقة ورغباتهم ؟! نعم يقولون " قال الطبري في تاريخه " فهل يقولون إنّه كتب بعد ما يقارب من 250 سنة من الحادثة. وإن ما كُتب من تاريخ الفتنة ، وتـاريخ بني أمية، إنما كان في زمن بني العباس؟!

يقولون قال" الواقدي " فهل يقولون إن الواقدي لم يكن ثقة بمنظـار أهـل عصره، وبالتالي لا يؤخذ برواياته؟! ويقولون قال "اليعقوبي " فهـل يقولـون إن الرجل قد وصف من قبل معاصريه بأنه كذّاب؟! ويقولون جاء في " الأغاني " فهل يقولون إن كتاب الأغاني لأبي فرج الأصـفهاني لا يعنـى بالحادثـة التاريخيـة وصدقها، وإنما يعنى بطرافة القصة وما فيها من أدب وشعر وإثارة وتشويق .

عالم التاريخ عندهم عالم عجيب، والأعجب أنهم يطلقون عليه اسـم (علـم التاريخ)، وإذا ما طالبتهم بتطبيق المنهجية العلمية في البحث التـاريخي، وعلـى وجه الخصوص (علم أصول الحديث) ومنه (علم مصطلح الحديث) يقولون لـك إذاً لا يبقى لنا من التاريخ إلا القليل .

نقول : وما حاجتنا إلى الكثير الذي لا يسمن ولا يغني ، ولكن لا بـأس بالروايـة التاريخية التي تبني عندك القيم والاتجاهات الإيجابية، وقد يعذر الذي يأخذ بهـذه الروايات لهذا الهدف من غير تمحيص، ولكن ما حجة من يأخـذها علـى أنهـا مسلّمات بهدف التشكيك وإثارة البلبلة ، وإضعاف الثقة بماضي الأمة وأصـالتها ، ونسف كل ما يلهم العزة والكرامة والأخلاق . ولا نحتاج إلى طول تفكيـر حتـى ندرك أن اللسان الواحد لكل الماركسيين، وكثير من العلمانيين، إنما هـو نتيجـة شعور كل هؤلاء بأن تأثير التاريخ الإسلامي في غاية القوة والعمق، مما يحبط كل وسائل الغزو الفكري الذي يقوده الغرب، من أجل تغريب الأمة .

والمراقب للدراسات التشكيكية يجد أن منبعها الدراسات الإستشراقية والتي يهيمن عليها نسبة كبيرة من اليهود. من هنا لا بد من التنبيه إلى أن العلم شـيء، وهذه الدراسات شيء أخر، فهي كما قلنا وسيلة من وسائل الغزو الفكري والحرب الباردة.

نظرات في
نظام الحكم الإسلامي

أُسيد بن حضير من زعماء الأنصار في المدينة المنـورة، اسـتمع إلـى مصعب بن عمير فأسلم، وما لبث أن ذهب إلى قومه وقـال : " كـلام رجـالكم ونساءكم علي حرام حتى تسلموا، فما لبثوا أن أسلموا إرضاء لأسيد ". وحصل ما يشبه هذا الموقف مع سعد بن عبادة، وأسلم قومه إرضاء له. وإن دلّت مثل هـذه الحادثة على شيء فإنما تدل على مكانة أسيد وسعد في قومهما، وهذا ليس بعجيب، لأن العقائد الوثنية هشّة لا يصعب تركها، وعلى وجه الخصوص عندما يطلب ذلك من هو أرجحهم عقلاً، وأتمهم أخلاقاً، وأكثرهم بذلاً، وأشدهم شـجاعة، كيـف لا والزعامة والسيادة يصنعها الفرد ولا يرثها. وقد اشتهر بين العرب السؤال الآتي : " يا فلان بم سدت قومك ؟! " فالسيادة والقيادة دالّة على جوهر القائد وحقيقته، أما اليوم فإن هذا الأمر لا يفهم في بلاد العرب والمسلمين، لأنك إذا سألت حاكمـاً : " بم سدت قومك ؟! " ماذا سيقول لك ؟! ربما يقول : عن طريق انقلاب عسـكري، وربما يقول لأنني تحالفت مع قوة عظمى معادية لأمتي، وهي تساندني بأسـاطيلها وهيبتها ...الخ

إذا بحثنا عن الجوهر فسوف نجد بلا شك أن أسيد بن حضير يمثّل قومـه تمثيلاً حقيقياً، وبالتالي لا داعي لشكليات الانتخابات، بل أرى أن انتخابات اليوم لا تعبر حقيقة عن تقديرنا ورضانا عن الحاكم الذي نختاره، فربما نختاره في الصباح ونشتمه في المساء، وما قيل في أسيد يقال في سعد، وعمر بن الخطـاب، وأبـي بكر، وعثمان، وغيرهم من كبار الصحابة. فإذا اجتمع هؤلاء في سقيفة بني ساعدة واختاروا أبا بكر خليفة لرسول ا ﷺ، ألا يكون هذا الاختيار من قبـل الممثلـين المرضيين اختياراً حقيقياً معبراً عن رضى الأمة؟

ابن حزم الظاهري، فقيه مجتهد، أندلسي عاش قبل ما يقارب ألف سنة ، له في الفقه (المحلى) وهو كتاب موسوعي، قرأت له أنّه إذا جاء زمان نستطيع فيـه أن نصل كل فرد من رعايا الدولة لنسأله عن رأيه عند اختيار الخليفة فيجـب أن نفعل ذلك. وهذا يعني أن مجتهداً اشتهر بأخذ ظواهر النصوص يرى أن الشريعة تُلزم أن تشارك الأمة في اختيار الخليفة، ولكنه يعلم أن ذلك غيـر ممكـن فـي عصره، بل هو أقرب إلى الاستحالة، لذلك نجده يتخيل عصراً تتـوفر فيـه هـذه الإمكانية، فعندها يصبح الأمر واجباً. مستند مثل هذا القول هو بدهيات وأبجديات الفقه الإسلامي، فمعلوم أن الخليفة يجب أن يكون مرضياً من الأمـة، ولا بـد أن يكون الرضى حقيقياً جوهرياً لا شكلياً، ولا يكلف ا نفساً إلا وسعها. فإذا اعتـذر القدماء من الأجداد بضعف وسائل الاتصال، والقـدرات التنظيميـة والإداريـة، فاقتصروا على رأي أهل الحل والعقد في العاصمة، فبماذا نعتذر نحن اليوم ؟!

في هذه المسألة هناك ثابت، وهناك متغير. أما الثابت غير القابـل للتغيـر مهما كر الزمن فهو أن تكون الأمة راضية عن الخليفة، وأن تكـون هـي التـي تختاره، بغض النظر عن الوسيلة المعبرة عن ذلك. أما المتغير، فهو الوسائل التي يتم بواسطتها أخذ رأي الأمة، والتحقق من رضاها الجوهري الحقيقي. ومعلوم أن الوسائل القديمة لا تستطيع أن تحقق ما تحققه الوسائل المعاصرة، وقـد تتطـور الوسائل والخبرات بشكل أفضل، فهل يجوز لنا شرعاً أن نتوقـف عنـد وسـيلة وأسلوب بعينه، بحجة أنّه كان معمولاً به عند السلف الصالح ؟!

المطلوب الرضى الحقيقي للأمة، والاختيار الحر، والمطلوب الوسيلة التي تجعلنا نتحقق من ذلك بنسبة 100%. ولكن ذلك غير ممكن، فيكتفي منـا الـدين بغاية الإمكانية، والتي قد تكون في عصر من العصور تعبر عن الواقع بنسبة 50 % ولكن في حالة تطور خبراتنا وإمكاناتنا وأسـاليبنا وطرائقنـا فـي الاختيـار فأصبحت تعبر عن الواقع بنسبة 70% فهل يجوز شرعاً أن نلجأ إلـى الأسـلوب والطريقة التي تعبر بنسبة 50% ؟! بالطبع لا يجوز ذلك، لأن المطلوب ما يعبـر بنسبة 100% والقبول بما هو أدنى نوع من التخفيف، لأن ا لا يكلف نفسـاً إلا وسعها، ولا يكلف نفساً إلا ما آتاها، وعليـه إذا تطـورت وسـائل الانتخابـات

والاختيار نحو الأفضل، فيجب شرعاً أن نترك القديم، ونلزم بالجديد. فهل يجـوز لخليفة معاصر أن يقاتل بالسيف ويترك وسائل القتال والحرب المعاصرة بحجة أن السيف سلاح السلف الصالح؟!

إذا عرفنا ذلك أدركنا لماذا يعتبر المسلمون في كل العصـور الإسـلامية الاختيار في عصر الراشدين اختياراً حقيقياً جوهرياً ومرضياً، بغض النظر عـن الأسلوب والشكل الذي تم فيه هذا الاختيار، والذي اختلف في بعض تفاصيله مـن خليفة إلى آخر، وعندما حرص معاوية ﷺ على تحقيق الشكل بعيداً عن الجـوهر الدال على رضى الأمة، وجدنا أن الأمة وعلى رأسها العلماء تعتبر ذلك انحرافـاً عن المبدأ، ويكفي للتدليل على ذلك أن نلفت الانتبـاه إلـى أن تعبيـر " الخلفـاء الراشدون " يحمل في طياته الإدانة لنظام الخلافة بعد ذلك، لأنه إذا كان هذا هـو الراشد، فما حكم ذاك ؟ ولذلك نجد أن العلماء ألحقوا عمر بن عبد العزيز بالخلفاء الراشدين.

يختلف تأثر الناس بالدين، وكذلك تختلف درجات قناعتهم ويقيـنهم، فهـم يختلفون قوة وضعفاً. يقول الرسول ﷺ :" المؤمن القوي خير وأحب إلى ا مـن المؤمن الضعيف، وفي كل خير " وعلى ضوء درجات الناس فـي الـدنيا تكـون درجات الآخرة : " وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً " ويندر أن تجد إنسـاناً في بلادنا العربية والإسلامية لم يتأثر بالدين بطريقة أو بأخرى، وهـذا يعنـي أن الدين يعمل في الناس على مستويات متفاوتة، ويختلف ذلك من عصر إلى آخـر، ويبقى الإنسان قاصراً عن بلوغ الكمال الذي أراده له الدين. ومن هنا نجد في كل عصر من يحاول أن يرتقي ويزداد. وإذا كانت الخلافة الراشدة صورة من صور النجاح المجتمعي، إلا أنها دون المستوى الذي تَحقق في عصر الرسول ﷺ، فليس غريباً أن نشهد شيئاً من التراجع بعد عصر الراشدين، فهذا حتمـي، لأن مجتمـع الصحابة هو المثال الذي أعطي للناس ليحتذوا به، وليكـون النمـوذج فـي كـل العصور. يقول تعالى في حق مجتمع الصحابة رضوان ا عليهم : " كنتم خيـر أمة أخرجت للناس ..." ويقول الرسول ﷺ :" خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ...". وإذا كان الناس في تلك العصور لـم يصـلوا فـي الـوعي

والتطور إلى درجة أن يحافظوا على المثال الأمثل وهذا أمر بدهي يرجـع إلـى طبائع الاجتماع الإنساني، فإن هذا المثال يبقى الحجة على البشرية، وهي ملزمـة أن تسعى إليه ما قدرت.

مخالفة المثال الأمثل لا ينفي عن المجتمع والدولة إسلاميتها، لأن الإسـلام يتسع لدرجات من التفاوت والكمال البشري. وإذا لـم يصـل القـدماء لضـعف وسائلهم، ودرجة وعيهم، وقلة علمهم، فما عذرنا نحن اليوم ؟! فإذا اعتذر معاوية ﷺ بخشيته من تفرق الأمة وظهور المنازعات، لطبيعة عصر الذي اختلف عـن عصر الصحابة الذين تعرضوا لأكثر من امتحان ونجحوا. فإذا اعتذر معاوية بهذا العذر، وهو كما قلنا طبيعة عصره، والاحتمالات القائمة، فبماذا نعتذر نحن اليـوم ؟ ! وإذا كان التراجع بعد عصر الراشدين حتمي، لأنه العصر الذي أقيم وأخـرج على خلاف القاعدة، وعلى خلاف المألوف، وأشرف على ذلـك رسـولٌ مؤيـد بالوحي. نعم إذا كان ذلك التراجع المتدرج حتمي، فهل الاستمرار في التراجع إلى درجة السقوط أمر مبرر ؟! وكيف يمكن أن يبرر أو يقبل بعد كل هذه الخبـرات والتطورات التي استفادت من التجربة البشرية عبر آلاف السنين ؟!

البيعة عقد بين الرعية والراعي، بين الشعب والحاكم، وأي عقد لا يتـوفّر فيه ركن الرضى فهو باطل. وبما أن السلطة في الإسلام بيد الأمة فهي حـرة أن تشترط على الحاكم ما تشاء من الشروط، ما لم تتعـارض هـذه الشـروط مـع نصوص شرعية صريحة. وبما أن الحاكم هو نائب عن الأمة في تطبيق شرع ا فالأمة حرة في إنابة من تشاء لإقامة شرع ا ، وهي أيضاً حرة فـي إقالـة هـذا النائب واستبداله. ولأن الأمة قد أجمعت على أنّه يجوز أن يبقى الخليفة في خلافته مدى الحياة، فقد ظن البعض أن هذا يعني أنّه لا يجوز شرعاً تنصيب خليفة لمـدة معلومة مشترطة. وهذا خلط عجيب، فللأمة أن تشترط ما تشاء بما لا يتعـارض مع نص صريح، فأين هذا النص الذي يقول بوجوب بقاء الخليفة حتى المـوت أو الاستعفاء؟! وليس موضوعنا هنا أيهما أفضل التأقيت أم عدمه، وإنما الكلام فـي الجواز وعدمه. وإذا كانت مسألة التأقيت من اختراع النظم الغربية، فمن يسـتطيع

أن يزعم أن الإسلام يمنع الإفادة من الخبرات الإنسانية الإيجابيـة؟! جـاء فـي الحديث الشريف:"الحكمة ضالّة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق بها".

ما يقال في تنصيب الخليفة لمدة محددة مسبقاً يقال في أمور أخرى يبـدعها البشر، أو تمليها عليهم ظروفهم وأوضاعهم، ومنها التفصيل في مسألة الشـورى، متى تكون ملزمة للحاكم، ومتى تكون غير ملزمة. ومعلوم أن قضـية الشـورى ملزمة أم غير ملزمة للخليفة هي قضية خلافية، لكل مذهب فيها دليل، ممـا يـدل على أن هناك حالات تكون فيها ملزمة، ولا بأس من تحديد الحالات التي تكـون فيها الشورى ملزمة وإلزام الخليفة بها كشرط من شروط الأمة، على اعتبار أنهـا صاحبة السلطة. وحتى صلاحيات الخليفة يمكن أن تحدد أكثر، مع بقائه المقـرر الأخير الذي تجب طاعته في إطار الشريعة وإطار عقد البيعة الملزم له.

أدت التطورات الفكرية، والاجتماعية، والاقتصادية في العالم الغربي إلـى تحولات سياسية أفرزت فيما أفرزت ما يسمى بالديموقراطية، ويثور جدل حـول موقف الإسلام منها. ومن يعرف حقيقة الإسلام، وحقيقة الديموقراطية يـدرك أن هناك نقاط اختلاف ونقاط اتفاق. الكثير من الناس يفهمون الديموقراطية على أنها الطريقة الحرة في اختيار الحاكم، والتي تسمح للأغلبية باختيار السلطة التشريعية، والسلطة التنفيذية وعلى رأسها الحاكم، الذي له أسماء كثيرة. ونحن هنا نوجز نقاط الاتفاق والاختلاف في الآتية :

1. في الإسلام الحاكمية العليا ، وفي الديموقراطيـة الحاكميـة للشـعب. ولا يتصور قبول موقف الديموقراطية هذا في البلدان الإسلامية، إذ إن الغالبية الساحقة من الشعوب الإسلامية ترى أن الحاكمية : " إن الحكم إلا ..". فالخلاف يرجع إلى التباين في اعتقادات وفلسفات الأمم الإسلامية والأمم الغربية. وعلى أية حـال فإن الشعوب الإسلامية تحرص أن تكون الحاكمية . أي أن الشـعب يقـر بـأن الحكم ، فهذه إرادته وهذا اختياره، وهذا حكمه إن كان الحكم للشعب.

2. بما أن الحاكمية عند المسلمين هي فلا بد أن تكون السيادة لشـريعته التـي يحكم بها الناس. أما في الديموقراطية فإن السيادة هي للشعب، وهذا نتيجة لقـولهم

بأن الحاكمية للشعب. ومن هنا يرى الإسلام أن الدستور والقانون لا بد أن يستمد من الأصول والتي هي : القرآن، والسنّة، والإجماع، والقياس.

3. حتى نحكم بشريعة ا لا بد أن تنيب الأمة عنها سلطة تقوم بالحكم، فسلطة تطبيق الشريعة هي للأمة، والأمة تنيب عنها من تشاء باختيارها، وكذلك الأمر في الديموقراطية فإن السلطة هي للأمة، وتقوم الأمة باختيار السلطة النائبة عن الأمة، ويكون ذلك بالاختيار الحر. هنا يلتقي الإسلام والديموقراطية، فالديموقراطية التي تعني الاختيار الحر والنزيه هي من روح الإسلام ومقاصده. قد يظن البعض أن الديموقراطية بهذا المفهوم هي من اختراع الغرب، وفي الحقيقة إن ذلك من بدهيات العقول، أي أنها من الأمور التي فطر ا الناس عليها، فالعقل البشري لا يرى مبرراً للأخذ برأي الأقلية، وعلى وجه الخصوص عندما يتعلق الأمر بالمجموع، وعلى وجه الخصوص أيضاً عندما تُحيد كل العوامل الأخرى. ومن يستطيع أن يزعم أن الأقلية أفضل من الأكثرية وأصوب حكماً، مع عدم وجود مرجحات أخرى؟!

الإسلام والرق

عندما نزل القرآن الكريم كان الرق من حقائق المجتمعات البشرية، ولم يشذ في ذلك مجتمع. ولم يكن الرق مجرد تسلط من الأقوياء على الضعفاء، بل كـان قناعات راسخة حتى في عقول الفلاسفة والمفكرين، بل وفي عقول وقلوب الأرقاء أنفسهم. لم يكن هناك حر يأمن الاسترقاق، فانتصار جيش فـي معركـة يحـول الكثير من السادة الأحرار إلى أرقّاء. حتى تتضح هذه المسألة نطرح السؤال الآتي : عندما يؤسر فارس ما من قبل قبيلة ما ويصبح مسترقاً، ما الذي يجعلـه يقبـل الواقع الجديد، لماذا لا ينتهز فرصة للهرب إلى قومه الذين قد يبعدون فقط عشرات الكيلومترات، وعلى وجه الخصوص عندما نعلم أن الأرقاء كـانوا يعملـون فـي الزراعة ورعاية المواشي ويتجولون بحرية كاملة ؟

ليس من السهل على الناس اليوم أن يستشعروا دوافع الرقيق في التزامـه واحترامه لقوانين اللعبة، فهو يرى أن من الأخلاق الكريمـة أن يلتـزم بقـوانين وأعراف المجتمعات، فلا يقبل لنفسه بعد أن أسر أن يفـر إلـى قومـه لأن هـذا يتناقض مع أخلاق الفارس، وحتى لو استطاع أن يفر إلى قومه فسوف يحتقرونـه لأنه عبد آبق، وكان يجب أن يلتزم بأخلاق الأمم وأعرافها، وهذه الأعراف هـي التي كانت تسهل التزام الأرقاء عن قناعة صادقة وإيمان راسـخ، وهـذا يجعـل الأمور بالغة التعقيد في وجه كل من يريد أن يغير الواقع، فلا بد فـي البدايـة أن يغير في مفاهيم وقناعات الناس كل الناس حتى الأرقـاء، ثـم عليـه أن يعـالج التعقيدات الناتجة عن وجود الأرقاء في كل بيت أو كل مزرعة، وكل سوق، وكل تجمع بشري. فهل يوجد عالم اجتماع يستطيع أن يزعم أن التغيير يمكن أن يكون بقرار فجائي فوقي؟!

لا أظن أن مسألة الرق عند المفكرين وعلماء الاجتماع تعالج بالطريقة التي يريدها من يعيشون في الخيال بعيداً عن الواقع وتعقيداته وملابساته، وقـد يحـتج

البعض بالتجربة الأمريكية، حيث تم تحرير الرقيق على يد أبراهام لنكولن، وهنـا يجدر بنا أن نقدم الملاحظات الآتية :

1. لا ننسى أن تحرير العبيد في أمريكا جاء في عصور متأخرة بعد أن تطـورت المجتمعات البشرية إلى المستوى الذي يؤهلها أن تقوم بمثل هذه الخطوة.
2. لم يأت ذلك إلا عبر حرب أهلية هائلة أزهقت أرواح الآلاف المؤلفة من البشر.
3. كان الشمال الأمريكي متطوراً صناعياً وهو بحاجة إلى اليد العاملة الرخيصة، في حين كان الجنوب زراعياً يحتاج للأرقاء في مزارعـه، فكانـت الحـرب الأهلية بين الشمال والجنوب لهذه الاعتبارات، ولم تكـن الـدوافع الإنسـانية والأخلاقية هي التي دفعت لنكولن للقيام بهذه الخطوة.
4. يقول التاريخ بأن الكثير من الأرقاء استجدوا أصحاب المزارع لإبقـائهم فـي مواقعهم، لأنهم لا يستطيعون العيش بعيداً عن الواقع الذي عاشوه طويلاً.
5. لا يزال الأمريكي الأسود يعاني من التفرقة العنصرية إلى أيامنـا هـذه، لأن السيد لا يزال مستعبداً لأفكاره، ولأن التحرير لم يـأت فـي سـياق التطـور الطبيعي للمجتمع.
6. إذا كان لا بد أن تحدث الحرب الأهلية حتى يتم تحرير الرقيـق، فلمـاذا لـم تحصل هذه الحرب في باقي المجتمعات البشرية، والتي لا يوجـد فيهـا الآن رقيق ؟! واضح أن الأمر جاء كثمرة لتطوير الوعي البشري، وقد لا نبالغ إذا قلنا إنه ثمرة حتمية، بدليل حصول إجماع بشري على رفض نظام الرق.

الماركسية من الفلسفات المعاصرة التي شغلت الناس علـى مـدى القـرن العشرين بكامله،وجاء الواقع ليثبت خطأ كثير من أسس هـذه الفلسـفة، كيـف لا والماركسية تقول:"إن التجربة هي مقياس الحقائق " فقد جاءت التجربة لتثبت خطأ هذه النظرية، وهذا لا يعني أن كل مقولات الماركسية هي خطأ، ولكن الحكم يكون على مجمل المبادئ الأساسية. وفي موضوع الرق كانت الماركسية تقول إن نظام الرق هو ضرورة من ضرورات تطور المجتمعات البشرية، والتي لا بد لهـا أن تمر عبر تطورها في المراحل الآتية: المشـاعية، ثـم الـرق، ثـم الإقطـاع،ثم الرأسمالية، ثم الاشتراكية، ثم الشيوعية. ويكون ذلك نتيجة حتمية لتطور الاقتصاد،

والذي لا بد أن يتطور على ضوء تطور قوى الإنتاج. على ضوء هـذه المقولـة الماركسية تعتبر مرحلة الرق مرحلة ضرورية من أجـل تطـور المجتمعـات البشرية إلى المراحل التي تليها، ولا يكون ذلك بخيار الناس، بل يفرضه تطـور قوى الإنتاج. نعم على ضوء هذه المقولة نستطيع أن نقول :

1. إذا كان نظام الرق حتمياً في وجوده وحتمياً في زواله، فلمـاذا يصـدر الإسلام قراراً ثورياً لمحوه وإزالته؟!
2. إذا كان نظام الرق ضرورة تفرضها التطورات الاقتصادية، وإذا كـان ضرورياً للانتقال إلى المراحل التي تليها، فلماذا يطلب من الإسـلام أن يقف أمام التطور، فيهدم نظام الرق قبل الأوان؟! يكفي هنا إن أمكن أن يسرع في تطور قوى الإنتاج والتطور الاقتصادي ليزول نظام الـرق، والذي لا بد أن نستند إليه من أجل الصعود إلى المراحل الأكثر تقـدماً وفق النظرة الماركسية.

واضح أن هذا المنطق يلزم الماركسي ولا يلزم العلماني، فليس بعجيب أن يناقش العلماني موقف الإسلام من الرق، ولكن العجيب أن يفعل الماركسي ذلـك. وهدفنا هنا من حديثنا حول الماركسية أن يحيط القارئ ببعض المواقـف الفكريـة والفلسفية من قضية الرق حتى في فلسفات ومذاهب القرن العشرين.

واضح تماماً أن التشريع الإسلامي لم يعمد إلى الأسلوب الثوري الفـوري والفوقي في معالجة مسألة الرق، ولا نظن أنه كان بإمكان البشر أن يتفـاعلوا أو يطبقّوا أي تشريع من هذا القبيل، لأنه لن يكون واقعياً، ولا يراعي طبيعة المشكلة المطروحة. أما الحذلقات عند بعض المعاصرين، والتي تزعم أن بالإمكـان فعـل ذلك فهي من قبيل الشعارات لا أكثر، بدليل أن تشريعات الدول العلمانيـة قاطبـة تأتي لتلبي حاجة الغالبية ورغباتها، بغض النظر عن صوابها أو أخلاقياتها، بل إذا أصبح أمر ما مطلباً شعبياً يصبح عندها مشروعاً وفق تشريعات الدول العلمانيـة، أما التشريع الإسلامي فجاء ليغير الواقع ويرتقي بوعي الناس، ويعدل في اعتقادهم وسلوكهم، ويدين الانحرافات،ويضع الحلول. ولا شك أن الحلول تختلف باختلاف المرض الاجتماعي ومدى استفحاله.

اللافت للانتباه أن القرآن الكريم لم ينص على إباحة الاسترقاق، وفي الوقت نفسه لم ينص على تحريمه. وهذا يعني أنّه يعتبر هذه القضية من القضـايا التـي تحتاج إلى علاج طويل الأمد، ثم هي من المسائل التي لا بـد فـي النهايـة أن تتلاشى. عندما تحدث القرآن الكريم عن الأسرى والموقف منهم وضع احتمـالين للتعامل معهم. جاء في الآية 4 من سورة محمد : ﴿ فإما مناً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ فإما أن يطلق سراح الأسير من غير مقابل،أو أن يطلـق سراحه بمقابل. وهنا يثور سؤال : لماذا لم يطرح الخيار الثالث فيقول : " وإمـا استرقاقاً " ؟! وهذا يعني أن القرآن ينزه عن ذكر الاسـترقاق المنـافي للكرامـة الإنسانية : ﴿ ولقد كرمنا بني آدم ...﴾فلا شك أن الاسترقاق هو اختراع بشـري كما كانت عبادة الأصنام وغيرها من اختراع البشر، وعدم ذكر القرآن للاسترقاق لا يخلق في النفس نفوراً منه، ولكن يلاحظ أن القرآن الكريم اعتبر إعتاق الرقيق من أعظم القربات إلى ا تعالى، جاء في سورة البلد ﴿ فلا اقتحم العقبـة، ومـا أدراك ما العقبة، فك رقبة..﴾ وجعل تحرير العبيد من مصارف الزكاة الثمانيـة، بل وقدم تحرير الرقيق في الكفارات على ما سواه. وقد وردت صـيغة "تحريـر رقبة " خمس مرات في القرآن الكريم، ووردت صيغة" فك رقبة" مـرة، ووردت صيغة " في الرقاب " مرتين. وفي الوقت الذي يعتبر فيه القرآن الكـريم تحريـر العبيد من أعظم القربات إلى ا تعالى، فإن هذا يعني أن الاسترقاق يناقض روح الدين وأهدافه ومراميه. وعلى الرغم من ذلك فإننا نجد أن الممارسة العملية فـي زمن الرسول ﷺ،وزمن الخلفاء الراشدين، وعلى مدى قرون من الحكم الإسلامي، لم تجتث الرق بل مارسته فماذا يعني ذلك ؟!

أن يخلو القرآن الكريم من ذكر الاسترقاق هو نوع من تنزيه القرآن عـن الحديث حول ممارسة غير إيجابية. وأن يجعل القرآن الكريم تحرير الرقيق قربـة عظيمة يتقرب بها المسلم إلى ا فإن هذا حكم ضمني بـأن الاسـترقاق منـافٍ لرضى ا . فإذا كانت الصدقة والبذل قربة إلى ا ، فإن هـذا يعنـي أن البخـل والإمساك مذموم، وهذا أمر بدهي. إذن لم يبق إلا أن ينَص على التحريم، وواضح أن القرآن الكريم لم يفعله، بل سكت عن الممارسة العملية المقننـة فـي أضـيق

صورها سواء في عصر الرسول عليه السلام أوالخلفاء الراشـدين. ومعلـوم أن ممارسة الرسول عليه السلام هي حكم شرعي بالإباحة، وأدى هذا الحكم بالإباحة إلى استمرار نظام الرق لقرون بعد عصر الرسالة.

إن الدول اليوم تحتفظ بالأسرى لديها لمدد مختلفة، حتى أن القانون العالمي ينظم هذه العلاقة الحتمية، الناتجة عن الصراع بين الدول. لا شك أن الأسر هـو نوع من الاسترقاق، وحجز للحرية، وهذا أمر مهين للكرامة البشرية، ولكن واقـع البشرية يجعله حتمياً. وبارتقاء الوعي البشري، هذّب الإنسان هـذا النـوع مـن الاسترقاق، فلم يعد الإنسان يباع ويشترى، ولا تسمح القوانين العالمية باسـتخدام الأسير في أعمال السخرة، وهذه أمور إيجابية يستطيع أن يفتخر بها نظام الـرق المعاصر على النظام القديم. أما النظام القديم فيستطيع أن يفتخـر علـى النظـام المعاصر بأنه جعل الأسير أكثر حرية، بل هو شريك في العمل والمبيت والمأكـل والملبس، جاء في الحديث الشريف في حق الرقيق:"فليطعمه مما يطعم وليلبسه مما يلبس" ولا يستطيع النظام المعاصر أن يعطي الأسير الحرية –كما سبق- مع بقائه أسيراً، لأن القيم والأعراف المعاصرة تحث الأسير على الهرب والتحرر، علـى خلاف النظم القديمة التي جعلت للتحرر وسائله. إذن ستبقى قضية الـرق قائمـة كعارض من عوارض القصور البشري. ولكنه يأخذ صوراً تتناسـب مـع القـيم والأعراف والمفاهيم والوسائل.

لا شك أنه من المفيد هنا أن نبين للقارئ النقلة الهائلة التي نقلهـا الإسـلام للسيد والعبد في سبيل تغيير الواقع، وكذلك التشريعات التي تخفف من مساوئ هذا النظام. والمتدبر لهذه التشريعات وتطبيقاتها العملية في الدولة الإسـلامية يـدهش من قدرة هذه التشريعات على رفع مكانة الرقيق مع بقائه رقيقاً إلى درجـة أنـك كنت تجد العالم الذي يدرس في الحلقة العلمية هو من الرقيق، وسيده جالس يتتلمذ على يديه، وإلى درجة أن الأرقاء استطاعوا أن يقيموا دولة إسلامية سميت دولـة المماليك.....عجيب!! ولا نريد هنا أن نستفيض في هذا الأمر، لأن أكثر من يكتب في هذه المسألة يفصل في هذه الأحكام، حتى أصبحت الأمور معلومة للكثيـرين،

على الرغم من أن قضية الرق قد أمست قضية تاريخية لا واقع لها في صـورتها القديمة.

ولكن يبقى السؤال قائماً : لماذا لم ينَص على التحريم؟

أتوقع أن يكون القارئ قد أخذ الإجابة من قراءته لهـذه الرسـالة، ولكـن الإجابة الحقيقية كما أراها تتلخص فيما يأتي:

الإنسان في منظور الإسلام هو خليفة في الأرض، ولكنه يموت، وهذا يعني أن الخلافة مؤقتة، وهي مرحلة ومقدمة لمرحلة أرقى، والتي هي الآخرة. والرحلة الأولى بالنسبة للثانية هي (دنيا) أما (الآخرة) فهي الخلود الذي لا تكون له نهايـة، وبالتالي تبقى آخرة. وقد سخر ا تعالى للإنسان السماوات والأرض، وهذا يشير إلى أهمية هذا المخلوق المكرم. معلوم أن الرسالات السماوية نزلت لهداية الإنسان وتنويره وتعديل سلوكه، ولكن هذا لا يلغي وظيفته في الأرض. من هنـا جـاءت الرسالات في مجال ما يسمى اليوم بالعلوم الإنسانية، كالفلسفة، وعلم التربية، وعلم الاجتماع، والأخلاق، والقانون.......لأن طبيعة هذه العلوم تجعل الإنسان يختلـف فيها كثيراً، وينشأ عن اختلافه فيها النزاعات والحروب...في حـين نجـد أن مـا يسمى بالعلوم الطبيعية ليست من اختصاص الدين، لأن هذه من شـأن الإنسـان، ويسهل على الإنسان أن يصل فيها إلى الحقائق، ثم لا ينتج عن الاخـتلاف فيهـا تنازع.

هذا يعني أن الدين نزل في الأمور التي لا يسهل على الإنسان أن يصـل فيها إلى الحقيقة، ولا يسهل على البشرية أن تلتقي عندها وتلتزم. أما الأمور التي يمكن أن يحسمها الإنسان مهما طال الزمن، ثم هو قادر على أن يجد لها حلاً ولو بعد حين، ثم هو يمكن أن يجمع عليها، ويتوحد حولها، فقد تركها الدين للإنسـان لتكون من مهامه.

مثال: من يقرأ التاريخ يجد أن مرض الطاعون مثلاً قد فتك بـالآلاف بـل بالملايين عبر العصور المختلفة، حتى أن الإمبراطورية الرومانية قـد انهـارت لأكثر من سبب على رأس هذه الأسباب انتشار الطاعون القاتل. على الرغم مـن ذلك لم يبعث ا رسولاً ليحل هذه المشكلة، لأنها مـن التحـديات التـي تواجـه

الإنسان، ويطلب منه أن يجد لها حلاً، وهو قادر على ذلـك. والآن نسـأل: أيـن الطاعون؟ لماذا لم يعد يفتك بالملايين؟ نجد الجواب عند أهل العلم، ولو حصل أن انتشر الطاعون اليوم في بلد ما لوجدنا العالم يستنفر طاقاته للقضاء عليه. وعليـه ما الداعي لنزول رسالة، أو بعث نبي من أجل هذا الأمر، ومن قال أن التحـديات للإنسان ستتوقف طالما أنه على هذه الأرض؟

مثال آخر: حرم الإسلام الزنا، وهذا يعني أن هذه المسألة لا يمكن للبشر أن يجدوا لها حلاً، وهي مسألة تختلف فيها الأنظار، وينشـأ عـن الاخـتلاف فيهـا صراعات وإشكاليات. لو افترضنا أن الإنسان توصل في يوم من الأيام عن طريق العلم إلى الحكم البات في أضرار الزنا الجسدية والنفسية والاجتماعية، فهل هـذا يكفي لمنع الناس من ممارسة الزنا؟!

واضح أن لا أمل في ذلك عندما يترك الإنسان وحده ليحل المشـكلة عبـر تطور وعيه وعلمه. بل إن التطور في الوعي والعلم زاد المشـكلة تعقيـداً علـى المستوى الاجتماعي، والجسدي، والنفسي، والتربوي،........الخ.

والآن لنسأل: هل استطاعت البشرية أن تجد حلاً لمشكلة الرق القديم، وهل أجمعت على رفضه، وهل استطاعت أن تقضي عليه فلم يعد أحد يمارسه؟ من منا اليوم لو سأل نفسه يجد أنه يؤيد أو يرغب في عودة هذا النظام؟ وإذا وجد من يشذ ويقبل بنظام الرق هل يجرؤ أن يصرح بذلك؟ وإذا صرح بذلك هل ينظر إليه على أنه شخص طبيعي؟ ومن الذي يستطيع اليوم أن يسترق إنساناً ثم ينزله إلى الشارع ويبقى مسترقاً؟.

إذن هذه مسألة يمكن للإنسان أن يوجد لها حلاً، وهي مسألة يمكن للبشر أن يجمعوا على حلها، بل يدهشك اليوم الإجماع البشري الهائل على هـذه المسـألة، مهما اختلفت العقائد والفلسفات والشرائع والأديان. هذا يدل على أن أساسها يكمن في الفطرة الإنسانية السليمة، ثم هي قضية وعي وتطور. إذن لا دخل للدين فيها، ولا يطلب من الدين أن يضع الحل البات لها، بل إن الدين خفف مـن غلوائهـا، وهذب من مساوئها، وسرع في دفع الإنسان في اتجاه حلها. أما تنظيم العلاقـة

بين السيد والعبد فهذه مسألة من اختصاص الدين حتى لا يكون ظلم وتجاوز، وحتى يصل الإنسان إلى الوعي الكافي لحل المشكلة.

هل يمكن أن يعود نظام الرق؟

لا ضمانة أن لا تنحرف الفطرة البشرية مرة أخرى بابتعادها عن دين ا وهديه، ولا ضمانة لدى العلمانيين والماديين، بل إن الفكر المادي الذي لا ينهل من الوحي الرباني، والذي لا يؤمن بقيم أخروية، يؤسس لعودة الرق، لأن القيم الإنسانية هي من اختراع الإنسان في نظر الماديين، وبالتالي لا ضمانة للالتزام بها، بل تصبح موازين القوى هي المنشئة للقيم والممارسات، ويبقى الدين الإسلامي بنصوصه المقدسة يشعرك بأن هذا مناف لروحه، ومناقض للفطرة التي فطر ا الناس عليها، ويبقى هو الصوت الذي يذكرك بالاخوة الإنسانية المنتمية إلى أصل واحد كرمه ا وأسجد له الملائكة.

يستحسن قبل أن نختم أن نتطرق لقضية الإماء، حيث يتساءل البعض عن العلاقة الجنسية المباحة بين السيد والأمة المستعبدة. كيف تباح هذه العلاقة ولم تتم بينهما زوجية ؟! كيف تباح مثل هذه العلاقة القسرية المهدرة للكرامة البشرية ؟! ونحن هنا نلخص الإجابة في الآتية :

1. قلنا إن العبودية من صناعة الإنسان، وهي مخلة بالكرامة البشرية، والعجيب أن نسأل عن العلاقة الجنسية بين السيد والأمة، إذ الأجدر بنا أن نسأل عن ملكية السيد للأمة، لأن هذا هو الخلل الأساس، وما سواه منبثق عنه.
2. عقد الزوجية عقد رضائي بين طرفين متكافئين، ينتج عنه حقوق وواجبات. أما الملكية فهي علاقة أقوى، وطبيعة هذه العلاقة تجعل الخيارات لطرف دون الآخر.
3. كيف يمكن أن نأذن بالملكية وبالتالي بتواجد السيد والأمة في بيت واحد، وبمخالطة دائمة، ثم نمنع علاقة هي في حقيقتها فطرية وطبيعية؟! فالعبودية هي المنافية للفطرة السليمة، أما اللقاء الجنسي فهو مطلب، وفطرة، وأساس من أسس الوفاق الإنساني.

4. واضح أنّه ليس للأمة خيار في كونها مملوكة، ولكن من قال أنه ليس لهـا خيار في علاقتها بالسيد، ومن قال إنها لا تحب ذلك؟! بل إن هذه العلاقة قد توجد توافقاً بين الطرفين ومودة ورحمة. ولا ننسى أن العلاقة شرعية بمنظار الطرفين، والخلل هو في العلاقات غير الشرعية.

5. من قال إن الزوجات يكن دائماً في حالـة مـن الرضـى فـي علاقـتهن بأزواجهن؟ ومن قال إن الأزواج أيضاً يكونون دائماً في حالة من الرضـى فـي علاقتهم الجنسية بزوجاتهم؟ ويبدو أن التربية والقناعات لها دور كبير في القـدرة على التعامل والتفاعل أو العكس.

6. كون الإنسان في مجتمع يجعل له حقوقاً ويلقي عليه ثقل الواجبات، وغالبـاً يحب الناس أخذ حقوقهم، وينفرون من أداء الواجبات. بما أنّـه لا بـد مـن أداء الواجب من أجل مصلحة الفرد والجماعة، لذا علينا أن نعد الإنسان لـيس فقـط لأداء الواجب، بل ليصبح محباً للقيام بالواجبات إلى درجـة التضـحية ونكـران الذات.

ويبعد في العقل أن تستطيع الفلسفات المادية أن تحل مثل هذه المشكلة، لأن الأمر يحتاج إلى بعد ديني وأخروي، ويحتاج إلى الإيمان بفكـرة الثـواب والعقـاب الأخروي، وليس الدنيوي فقط. من هنا فقد استطاعت التربية الإسلامية ذات البعد الغيبي أن تعد الفرد لينسجم مع حقائق الواقع الاجتماعي، فكان الحل للإشـكاليات من داخل النفس قبل أن يكون من خارجها، وفي مسألة الرق استطاع الإسلام أن يغير في عقلية السيد والعبد، وكذلك خلق لدى الإنسان القدرة على التعامـل مـع ضغوط الواقع التي لا بد أن توجد دائماً في كل زمان ومكان. وليسـت المشـكلة قاصرة على واقع الأمة التي وجدت نفسها مستبعدة، بل إننا نجد كما قلنا سابقاً أن الزوجة أو الزوج قد يقعان في مثل هذا الإشكال أو المشكلة، فالتربية الدينية تخلق التكيف والتوافق، وبالتالي قد يكون واقع الإماء على خلاف ما نتوقعه بمقـاييس عصرنا وأحكامه.

7. واضح أن علاقة السيد بالأمة مجرد أمر مباح نظراً للتعقيدات والملابسات، لأن في تحريم هذه العلاقة إحراجاً وإضراراً بالأمة قبل السيد، لأن هذه العلاقـة

من حاجاتها الفطرية، وهي ترغب أن تكون مطلوبة، ولكن لا بد من التنبيه إلـى أن هذا الحق للسيد فقط، لا يشاركه فيه أحد، كحق الزوج لدى زوجته، وهو يفقد هذا الحق إذا قَبِل أن تتزوج من رجل آخر. والدين يمنع أية إساءة للإنسـان، ولا فرق في ذلك بين الحر والعبد.

إذا كنت تقرأ هذا المقال وشعرت بالامتعاض عندما ذكرناك بـأمور حـدثت فـي التاريخ، وأصبحت أثراً بعد عين، فإن هذا الشعور لديك دليل على أن فطرتك في هذا الجانب لم تتلوث. قد تتمنى في داخلك أن يكون الإسلام قد بتّ التحريم علـى الرغم من كل ما قلناه، ونحن بدورنا نقول لك: بإمكانك أن تتصور الواقع البشري لو لم ينزل ا الرسالات للناس. من هنا ندرك ضرورة الدين للبشرية، لأننا نطلب الدين بإلحاح حتى في الأمور التي هي ليست من اختصاص الدين كمـا أوضـحنا آنفاً.

لماذا الشّر؟
لماذا خلقنا ا

الشّر من المسائل التي خاض فيها الفلاسفة طويلاً، وهي قضية تثار أحياناً للتشكيك في حكمة ا الخالق، إذ كيف يخلق ا الشّر، وما الحكمة من ذلك؟! وبلغت هذه المسألة عند البعض درجة المعضلة التي لا حل لها. ونحن هنا نقدم وجهة نظر تبدو لنا أقرب إلى الصواب، إذ الشّر غير موجود ابتداء، ولكنه وجد تبعاً بعد أن خُلق الإنسان وغيره من القوى المدركة، وقد تشكل هذا المفهوم في الذهن البشري كنتيجة لأمرين ينحصران في كون الإنسان مخلوق ناقص، وفي موقف الإنسان من الأمر الإلهي، وإليك تفصيل ذلك:

أولاً: الكمال لا يكون إلا تعالى، وكل ما خلق ا فهو ناقص ومحتاج إليـه ولا مجال لان يكون المخلوق كاملاً، فعلى مستوى الوجود نجد أن نقطة البداية لمخلوق ما تجعل عمره دائماً في دائرة النهائي. ومن هنا كان الأزلي فقط هو الذي لا بداية له، وبالتالي لا نهاية له. ولا نريد هنا أن نعقّد الأمر، لذا نقول ببساطة: طالما أن المخلوق ناقص، ولا كامل إلا ا ، فلا بد أن ينبثق عن هذا الـنقص مـا نسـميه بالشّر. فالموت مثلاً نوع من النقص، وهو ينهي حياة الإنسان، لذا يعتبره الإنسان نوعاً من الشّر. والإنسان أيضاً يمرض والمرض يمكن أن يؤدي إلى الضـعف أو الموت، ومن هنا كان المرض في نظر الإنسان شرّاً. وفي الوقت الذي يبقى فيـه الإنسان صحيحاً فلا يمرض، ويخلد فلا يموت، عندها ستتلاشى فكرة الشّر المتعلقة بالمرض والموت. وهذا يكون في الجنة لأهل الإيمان.

ثانياً: أما السبب الثاني لوجود مفهوم الشّر في الفكر البشري، فهو نزول الرسالات الإلهية، والتي هي رحمة، ونور، وهدى للناس، ويمكن تمثيلها بـ (الكاتالوج) الذي

يرسله الصانع للتعريف بالمصنوع وكيفية التعامل معه. فهذه الرسالات جاءت بالتعليمات والأوامر والنواهي لتحقيق الانسجام بين الإنسان والوجود، وعندما بدأ الإنسان يتمرد أحياناً على هذه التعليمات والأوامر تبلور في فكره مفهوم ما يسمى بالشّر.

هذا يعني أن الشّر غير موجود ابتداء، ولكن عند وجود المخلوق الناقص، والذي سيبقى ناقصاً لأنه ليس بإله، وجد مفهوم الشّر، ثم عندما تمرد هذا الناقص على أوامر الكامل تبلور مفهوم آخر للشر.

ويقودنا هذا إلى القول بان الشّر قضية اعتبارية، فعندما يعتبر الإنسان أن الموت شّر فليس بالضرورة أن يكون الأمر كذلك على مستوى الواقع، فإذا كان وجود الإنسان ونموه خيراً، فلماذا نعتبر فناءه وتحلله شراً؟! قد يكون الجواب: لان الإنسان يحب الحياة ولا يريد الموت. وما الذي يدرينا أن حب الإنسان للبقاء في الدنيا هو خير حتى نقول إن الموت شر. وعليه يبقى الشّر الحقيقي والجوهري هو مخالفة الناقص لأوامر الكامل. وبذلك نكتشف أن الإنسان هو الذي يخلق الشّر، وبالتالي يفوت على نفسه فرصة أن يكمل نقصه عن طريق هبة الخالق الكامل، والتي هي الخلود والسعادة التامة، حيث يبلغ الإنسان درجة النفس الراضية المرضية.

وإذا كان الإنسان هو خالق الشّر، فلماذا خلقه ا ؟!

لماذا خلقنا ا ؟

سؤال حير العقول، ولا يزال الناس يسألون: لماذا خلقنا ا ؟! وقد يبادر البعض إلى القول: إن ا خلقنا لنعبده، ويدللون على ذلك بقول ا تعالى: " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ". ولكن هل صحيح أن الآية تشير إلى ذلك ؟ والذي نراه أن الآية لا تجيب عن سؤال لماذا خلقنا ا ؟ وإنما تشير إلى وظيفة الإنسان في الحياة الدنيا. وحتى يتضح هذا الأمر يجدر بنا في البداية أن نبين المقصود بالعبادة في المفهوم الإسلامي.

المتتبع للآيات القرآنية والأحاديث الشّريفة، يدرك شمول مفهوم العبادة لكل جوانب الحياة، وهذا يعني أن العبادة هي كل سلوك إيجابي يقصد به التقرب إلـى ا تعالى. ولا شك أن الدين الإسلامي قد فصل وبين مفهوم الإيجـابي والسـلبي. لذلك نجد أن الفقيه ابن تيمية رحمه ا يذهب إلى أن ا شرع العبادة الصـغرى مثل الصلاة، والصيام، والحج وغيرها، من أجل صلاح العبادة الكبـرى، وقصـد بالكبرى هنا ممارسة الحياة، فما يسمى بالشعائر التعبدية هـي الـدائرة الخاصـة والضيقة لمفهوم العبادة. وهذا الأمر أصبح مفهوماً عند الصـغير والكبيـر مـن المسلمين.

لماذا خلقنا ا ؟...... الذي يسأل هذا السؤال قد يقصد في سؤاله أن يقـول لك: كان الإنسان عدماً، فما هي الحكمة الربانية في خلقه بعد أن كان غير موجود؟ وقد يكون قصد السائل أن يقول لك: الإنسان موجود، ولا أسألك عن خلقه بعد أن كان عدماً، وإنما أسألك أنّه الآن موجود، لماذا؟ أي أن السائل يسأل عـن وظيفـة الإنسان بعد أن خلقه ا ؟ وهذا السؤال أجابت عنه الآية القرآنية: " ومـا خلقـتُ الجن والإنس إلا ليعبدون " فهي تحديد وظيفة الإنسان بعد أن كـان مخلوقـاً، ولا تتحدث عن خلقه قبل أن يوجد. وقد عرفنا أن العبادة هي كل سلوك إيجابي يقصد به التقرب إلى ا . وعليه يكون معنى الآية:" وما خلقت الجن والإنس إلا ليسلكوا سلوكاً إيجابياً وفق ما أحدده لهم، فأنا لم أخلقهم للسلبيات، أنا خلقتهم والشأن شأنهم أن يكونوا إيجابيين ثم يأتي الدين ويفصل في ما هو إيجابي وما هو سـلبي، مـا يطلب فعله وما يطلب تركه.

لا توجد دولة إلا وتضع القانون الذي ينظم علاقة الناس بعضهم بـبعض، وتقوم السلطة التنفيذية بحماية هذا القانون، وتصبح طاعة الدولة من الواجبات التي لا يسمح لأحد أن يفرط فيها، أما الشّريعة الإسلامية فلم تقتصر على تنظيم علاقة الناس بعضهم ببعض، بل تعدت ذلك إلى تنظيم علاقة الإنسان بالوجود، ثـم هـي تعمل على تربية الإنسان والارتقاء به. ومن أجل تحقيق التفاعل والالتزام من قبل الناس، جعل الالتزام بهذه الشّريعة عبادة يثاب عليها المؤمن، وجعل المفرط بهـا

عاصياً مستحقاً للعقوبة. وإذا كان للقانون سلطة إلزام دنيوية، فإن للشريعة سلطة إلزام دنيوية وأخرى أخروية. وهذا يعني أن الله تعالى قد تعبدنا بمصلحتنا فنحن الذين بحاجة إلى تنظيم ورعاية، وهداية، وتربية، وتنمية.فكان من نعمة الله بالناس ورحمته، أن جعل تحقق مصالحهم عبادة له نسبها إلى نفسه لتحقق الدوافع لدى الناس بالتزام مصالحهم وعدم التفريط بها. ومن هنا لا يصح سؤال بعض الناس عندما يقولون: " وهل يحتاج الله لعبادتنا ؟ " فالجواب: بل نحن الذين بحاجة إلى عبادته، لأن عبادته هي التي تحقق مصالحنا، فمن الذي يستفيد عندما تشرع الزكاة ؟ أما الصلاة فمردودها على الفرد والجماعة واضح وملموس، والله تعالى يقول:"إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ". ومن الذي يتضرر إذا انتشرت الفحشاء والمنكر ؟ ...وهكذا .

يمكن أن يقودنا هذا القول إلى أن العبادة وسيلة لإصلاح الدنيا، وصلاح الدنيا يؤدي إلى صلاح الآخرة.ومن أبرز الأدلة على أن العبادة وسيلة وليست غاية أن العبادات في الدنيا غير موجودة في الآخرة، فلو كان الله تعالى قد خلقنا من أجل هذه العبادات، فلماذا لا تستمر في الآخرة ؟!

إذاً لماذا خلقنا الله ؟

حتى نصل إلى الإجابة عن هذا السؤال، نقوم بطرح المثال الآتي:

لدينا ساعة يد، يمكن أن نسأل حولها ثلاثة أسئلة أساسية: هل احتاجت الساعة إلى صانع ؟ كيف صنعت الساعة ؟ لماذا صنعت الساعة ؟

1. هل احتاجت الساعة إلى صانع ؟ نقصد بالصانع هنا الصفات الآتية: العلم،الإرادة، القدرة. وللإجابة عن هذا السؤال لا بد أن ننظر إلى الساعة، وبمجرد النظر السريع إلى الساعة يحكم الإنسان على الفور بأنها احتاجت إلى صانع ويمكن أن نتلقى إجابة إيجابية 100% من العقلاء من غير تردد. وهذا أمر بدهي.
2. كيف صنعت الساعة ؟ للإجابة عن هذا السؤال لا بد من النظر في الساعة، أو سؤال الصانع. وسوف تنخفض نسبة الذين يمكن أن يجيبوا إجابة إيجابية.
3. لماذا صنعت الساعة ؟ حتى نجيب عن هذا السؤال لا بد أن يكون لدينا علم بالخلفيات التي سبقت الوجود. أي لا بد من العلم أن البشر قسموا اليوم إلى "24"

جزءاً، ثم قسموا كل جزء إلى "60" جزءاً،ثم قسموا كل جزء إلى "60" جزءاً، وهذه الأجزاء تسمى ساعة، دقيقة، ثانية. إذا لم تعرف هذه الخلفية التي سبقت الوجود، لا يمكن معرفة الإجابة على وجه الجزم، وترجع عدم الإمكانية إلى أن سؤال "لماذا" يتعلق بما قبل الوجود. أما سؤال "هل" وسؤال "كيف" فيتعلقان بالوجود، ومن هنا يمكن أخذ الإجابة من النظر في الوجود.

والآن نسأل: هل خُلق الكون ؟ الإجابة هي من مسئوليتك، لأنّه لا بد أن تنظر إلى الكون، وفي الكون، حتى تحصل على الإجابة. ولست بحاجة إلى أن تسأل أحداً عن ذلك، فمن السخافة أن تسأل الناس عن وجود فنان وراء اللوحة البديعة، لأن الإجابة تقدمها لك اللوحة عندما تنظر إليها. ويسهل عليك أن تصل إلى الإجابة بغض النظر عن خبرتك أو مستواك العلمي، أو الفلسفي. لذا من أعجب العجب أن يطلب إنسان من غيره أن يثبت وجود الخالق.

كيف خلق الكون ؟ البشرية منذ وجدت إلى يومنا هذا وهي تنظر في الكون في محاولة لمعرفة كيف خلق هذا الكون، وتطور العلوم كان نتيجة لمحاولة الإنسان أن يفهم كيفية تكوين الوجود ثم إن الدين قدم للإنسان بعض الإجابات عن بعض الكيفيات، فالقرآن الذي يطلب من البشر أن ينظروا في كيفية الخلق: " قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق " قدم لهم بعض المعارف حول ذلك مثل:" ثم استوى إلى السماء وهي دخان " ومثل " أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي ". واللافت أن آلاف السنين لم تكن كافية للإنسان حتى يلم إلماماً كافياً بكيفية الخلق، ولا يزال يحاول ذلك وهو ينجح كل يوم، ولكنه لا زال يجهل الكيفية الكاملة.

لماذا خلق ا الكون ؟

هذا السؤال لا يمكن أن نحصل على إجابته من خلال النظر في الكون، لأنه يتعلق بأمر سبق الوجود، فكما سبقت فكرة الزمن وجود الساعة، فلا بد أن تسبق فكرة خلق الكون وجوده الفعلي. ومن هنا لا يمكن لتطور العلم أن يعطي الإجابة عن هذا السؤال، لأن العلم يبحث في الوجود، وسؤال (لماذا) يبحث فيما قبل

الوجود. والإجابة لا تكون إلا عند الخالق، لأنّه هو الذي أراد أن يخلـق قبـل أن يخلق. فهل نجد في الوحي إجابة عن هذا السؤال ؟ في الواقع ليس هناك من إجابة عن هذا السؤال.ولكن لماذا ؟

1. مجال تفكير الإنسان وعلومه ووظيفته، هو الكون المخلوق، والسؤال يتعلق بأمر غير وجودي.
2. لا يزال الإنسان قاصراً عن فهم الكيفية، فكيف له أن يفهم ما هو أكبر؟
3. قد تكون المسألة من المسائل التي لا يطيقها العقل البشري، وهذا بدهي أن يكون علم الخالق فوق علم المخلوق، وحكمة الخالق فوق حكمة المخلوق، وحتـى بين البشر نلاحظ تفاوتاً في القدرات، فلا يتوقع من الطفل ابـن سـنة أن يفهـم الحكمة في تصرفات الأباء والأمهات. وقد وجدنا بالتجربة أن الإجابة عن سؤال:" من خلق الخالق ؟ " سهل جداً عندما يكون السائل مثقفاً ذكياً، ولكن إذا سأل هـذا السؤال طفل نجد أنفسنا عاجزين عن إجابة يقتنع بها الكبار،ولا معنى لأن نتحدث مثلاً عن الهندسة الفراغية لطفل في الثانية من عمره.
4. سهل على الإنسان أن يجيب عن سؤال هل ؟ وسؤال كيف ؟ وهذا يكفـي لخلافته ووظيفته في الأرض. ولكن من قال إن الإنسان قد خلق للدنيا، فمعلوم أن الدنيا تزول إما بموت الناس، أو بزوالها يوم القيامة. ومن هنا لا معنـى لوجـود الإنسان لمدة محدودة من الزمن حتى لو بلغت مليارات السـنوات، لأن النهايـة تجعل البداية غير ذات معنى، ومن هنا نجد أن الخلود فقط هو الذي يعطي البداية معنى، ومعلوم أن الآخرة هي دار الخلود. إذن فقط الآخرة هي التي تعطي الدنيا معنى، وقد ورد " خلقت الدنيا لكم وخلقتم للآخرة " إذن لا إجابة دنيوية عن الغاية من خلق الإنسان، وهناك إجابة عن وظيفته الدنيوية وعلاقتها بالمصير الآخروي.

فليس بالضرورة أن تكون الإجابات كلها دنيوية، وإلا بماذا تتميز الآخرة. ولا مجال لعالم المحدودات والنهائيـات أن يجيـب عـن أسـئلة تتعلـق بعـالم اللانهائيات. وهذا من أهم الفروق بين الدنيا والآخرة.

وأخيراً نحن نخاطب بهذا المقال أهل الإيمان، أما غير المـؤمنين مـن الماديين فلا يلزمهم هذا لأن الحياة عندهم صدفة وبالتالي لا يوجد شيء له معنى، والحكمة منتفية من الوجود كله، ولا أدري لماذا يعيشون !!

الردة

قبل أكثر من (1400) سنة كان نزول الإسلام علـى محمـد ﷺ ، ومـن أساسيات هذا الدين الرباني أنه جاء للبشرية جمعاء ، إلى يوم القيامة . مـن هنـا كان الإسلام ناسخاً لكل الرسالات السابقة ، لأنه كان كل رسول يبعث إلى قومـه خاصة ، وبعث محمد عليه السلام إلى البشرية عامة . لذا جـاء القـرآن الكـريم معجزة فكرية لتكون البرهان على صدق النبوة في كل زمـان ، فـي حـين أن معجزات الأنبياء السابقين كانت حسية ، وهذا يشهد بأنها محـدودة فـي الزمـان والمكان . وإذا كان يصح في العقل أن تتعدد الرسالات عندما تكون خاصة، فـلا يعقل أن تتعدد الرسالات العامة عندما يكون المرسِل هو ا الواحد .

الدارس للتاريخ الإسلامي يجد أن الدولة الإسلامية بادرت إلـى تصـحيح الأوضاع الظالمة في الكرة الأرضية ، وهذا نتيجة ضرورية لرسالة عامة ، ومن هنا وجدنا أن الجيوش الإسلامية تقتحم الحدود ، ولا تعترف بسلطان الظـالمين ، وهذا يؤكد عالمية الإسلام . وفي الوقت الذي كانت تنجح فيه الجيوش الإسـلامية في إسقاط عروش الظالمين ، المتسلطين على رقاب النّاس ، الذين يفرضون مـا يشاءون من العقائد والشرائع ، كنا نجد أن هذه الجيوش تبدي من التسامح الـديني ما لم يكن متوقعاً ، على خلاف ما كان معهوداً لدى البشرية جمعاء ، بل لا يزال الناس إلى يومنا هذا قاصرين عن تحقيق واقع من التسامح الـديني الحقيقـي . لا نظن أن هذا التسامح الذي تميزت به الدولة الإسلامية نابع من موقـف قيـادة أو أخرى ، في عصر أو آخر ، بل هي قناعات أملتها نصوص القرآن والسنّة ، حتى أصبحت نوعاً من الإيمان . ليس عجيباً أن يمارس الملحد تسامحاً دينيـاً لأنّـه لا يؤمن بالدين أصلاً ، وليس هناك ما يدعوه إلى التعصب الديني ، ولكن العجيب أن يكون المتسامح مؤمناً راسخ الإيمان ، ويزول العجب عندما يكون التسـامح مـن أساسيات هذا الإيمان الراسخ.

شهد القرن العشرون صراعاً بين فلسفتين وعقيدتين بعيدتين عن الـدين ، هما الشيوعية والعلمانية الرأسمالية ، ولا نظن أن عصراً مـن العصـور شـهد تعصباً كما كان الأمر بين الشيوعية والعلمانية . وقد بالغت الشيوعية فـي نفـي الرأي الآخر إلى درجة غير مسبوقة تاريخياً ، ووجدنا أن التعصب يلـبس ثـوب الفلسفة والعلم . ولم يقتصر الأمر عند الشيوعيين على حظر أي فكرة مخالفة ، بل تعداه إلى الملاحقة والاجتثاث بشكل عنيف ودمـوي . فـي المقابـل وجـدنا أن العلمانيات لا توفر الحماية للفكرة الدينية وتسمي ذلك تسامحاً ، ثم هـي تـرفض بشدة كل ما هو غير علماني ، بل وتلاحقه بأساليب مختلفة ، فكـان علـى رأس الملاحقين في أمريكا مثلاً الحزب الشيوعي والفكرة الشـيوعية . ولا يقبـل فـي المجتمعات العلمانية أي طرح من شأنه أن يزعزع الفلسفة الرأسمالية .

قد يكون من المفهوم أن يمارس الدين الرفض لكل فكـرة تتنـاقض مـع أساسياته باعتباره رباني المصدر . وأن هذا الرب العليم الحكيم لا يخطئ ، وهـو أعلم بما يصلح خلقه، ثم تكون هذه المقالة المدخل لفرض ذلك على النّاس . ولكن كيف يقبل من فلسفة تقّر بأنها بشرية المصدر أن تزعم لنفسـها العصـمة ، ثـم تمارس التضييق والملاحقة لكل فكرة تخالفها ، بل تمارس الاجتثاث لكل من لـم يؤمن بها ، كما حصل في الفلسفة الماركسية ، المسماة الاشتراكية العلمية ، وكما يحصل في العلمانيات اليوم والتي تختلف في درجة رفضها للأخر من علمانية إلى أخرى . لقد أثبت الواقع التاريخي أن الإسلام وقبل (1400) سنة قد اسـتطاع أن ينتزع من قلوب أتباعه دوافع الرفض للآخرين الذين يخالفون في الدين والاعتقاد، وجعلهم الأكثر تسامحاً في التاريخ البشري ، كيـف لا وقـد جـاءت الشـريعة الإسلامية بتنظيم العلاقة مع المخالفين ، وأصبحت هـذه العلاقـة مـن مفـردات الشريعة الإسلامية ، أي إن الإسلام أشعر أتباعه منذ البداية أن المخـالفين واقـع حتمي لا بد من التعامل معه ، وفرق في ذلك بين أحكام الدنيا وأحكـام الآخـرة ، وأخّر الحكم هذا إلى اليوم الآخر ، وجعله العادل دون غيره ، كل ذلـك جعـل المسلمين الأقدر على تفهم واقع التنوع والاختلاف دنيوياً .

الإسلام الذي تميز على غيره في التعامل مع المخالفين ، هو الذي شرع حد الردة ، الإسلام الذي حرم إكراه الآخرين على ترك دينهم، هو الذي يقيم الحد على المرتد عن الإسلام . جاء في الآية 99 من سورة الحجر :" ولو شاء ربك لآمـن من في الأرض كلهم جميعاً، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين " وعلى الرغم من ذلك نجد أن الإسلام يحظر على المسلم تغيير دينه ، في الوقت الذي لا يحظر على الآخرين تغيير دينهم ، بل يدعوهم إلى ذلك، ولكن لا يجبرهم ، فمـا معنـى ذلك ؟

اللافت للانتباه أن عقوبة المرتد عن الإسلام هي من عقوبات الحدود والتي تنحصر في الجـرائم الآتيـة : الزنا،والقذف،والسـرقة،وقطع الطريق،وشـرب الخمر،والبغي،والردة . وقد عرف العلماء الحدود بأنها عقوبات ثبتت حقّاً تعالى ، وهذا يعني أنها من حقوق المجتمع ، أو ما يسمى بالحق العام . واللافت للانتباه أن هذه الجرائم تمس بنيان المجتمع ثم هي قابلة للانتشار ، انظر مثلاً إلى جريمة الزنا التي اعتبرها الغرب العلماني من الحريات الفردية ، ما لبثـت أن انتشـرت انتشاراً هائلاً ،ونشأ عنها مشكلات اجتماعية لا حصر لها ، بل هي مشكلات غير قابلة للحل وفق الواقع الغربي ، مثل تفكك الأسرة ، والأعداد الهائلة من اللقطاء ، والأمراض الجنسية المستفحلة ... وهذا يعني أن العلمانية أخطأت عندما اعتبـرت أن الزنا من الحريات الفردية ، لأن حرية الفرد يجب أن تكون فيما لا يتناقض مع مصلحة المجموع ، ولا نبالغ إذا قلنا أن أخطر ما يهدد المجتمعات الغربيـة هـو المشكلات المتولدة عن الحرية الجنسية .

إذن الإسلام لم يعتبر مسألة الردة مسألة فردية ، بل اعتبرها من المسـائل المتعلقة بالمجتمع ، فجعلها حقاً عاماً ، أي أن الإسلام يجعل من أولوياتـه حمايـة عقيدة الأمة التي يعتبرها العقيدة الربانية الحقّة،والتي جاءت لإنقاذ البشـرية مـن التخبط والانحراف . ومعلوم أن الإسلام عقيدة وشريعة، وليس مجرد عقيدة ، أي أنه إيمان وعمل ، وليس بفلسفة نظرية ، ولا مجال لانفكاك الجانب العقائدي فـي الإسلام عن الجانب التشريعي . وفي هذا المقام قد يحسـن أن أنقـل اعتراضـاً لمحاضِرة في جامعة فلسطينية على تسامح الإسلام قائلة :" إذا كان الإسلام هو

الدين الحق، فلماذا لم يجبر الناس على اعتناقه، ولماذا لا يكرههم ما دام ذلك فـي مصلحتهم ؟! " في المقابل نجد بعضهم يقول :" لماذا شرع الإسلام حد الـردة ؟!" وسبق أن أشرنا إلى التناقض الواضح بين موقف الماركسية والعلمانية من مسـألة الحريات ، وهذا يعني أن البشر لا يزالون يتخبطون في موقفهم من حرية الفـرد الذي يعيش في مجتمع.

العجيب أن الكثير ممن ينتقدون حد الردة هم من الماركسـيين السـابقين ، ويلحظ ذلك طلبة الجامعات الفلسطينية ، إذ كيف يستطيع الفرد منهم أن ينتقل هذه النقلة الكبيرة من النقيض إلى النقيض ، فبعد أن كان يكفر بالحريـات ويمـارس الإكراه ،نجده يطلب أن لا تكون هناك قيود على أي شيء ، وكأنّـه يتبـرأ مـن ماضيه بالتطرف .

كثيراً ما نسمع عن القناعات ، وضرورة أن يتبنى الإنسان ما يقتنع بـه ، وهـذا شيء جميل ومثالي ، ولكن الدارس لتاريخ البشرية قديماً وحديثاً يدرك أن إيمـان الشعوب وقناعاتها غالباً ما تؤخذ بالوراثة ، من غير تمحيص ، وغالباً ما نجد أن القلب هو الذي يختار وليس العقل ، بل إن العقل يتأثر بشدة بالقلب ، والعقل يشبه المصباح الذي يضيء لك الطريق ، ولكن العبرة بمن يوجه هذا المصباح،فيضيء له حيث يشاء . من هنا نجد أن الإنسان يتأثر بأفكار محيطه الاجتماعي ، وعلـى وجه الخصوص أولئك الذين تربطه بهم رابطة القرابة والمحبة والتقدير والاحترام ، وإلا قل لي : هل الأغلبية العظمى من البريطانيين أخذت الكاثوليكية عن قناعـة ودراسة وتمحيص ؟ هل الغالبية العظمى من اليهود تفتخر بيهوديتها لأن عقـولهم أوصلتهم إلى هذه القناعات ؟ هل الغالبية العظمى من الباكستانيين أخذوا الإسـلام عن قناعة ودراسة، وبعد أن أدركوا خطأ تبني الهنود للهندوسية؟

عندما انهارت الشيوعية وجدنا أن الغالبية من الروس قـد رجعـت إلـى الأرثوذكسية ، ورجع المسلمون بقوة إلى إسـلامهم ، وفـي يوغوسـلافيا رجـع الكروات إلى الكاثوليكية ، ورجع الصرب إلى الأرثوذكسية ، ورجع البوسـنيون إلى الإسلام . هذا هو واقع البشر في غالبيتهم العظمى ، حتى الفلاسفة يغلب عليهم وعلى أدلتهم عقائد آبائهم . لا يعني كل هذا أن الإنسان مجبر في اختيار عقيدته ،

لا يستطيع أن يحكّم عقله ، فواقع البشرية يدل أيضاً على أنّه بالإمكـان إحـداث تغيير جذري،وإلا كيف وجد اتباع للمسيحية بعد ظهور المسيح عليه السلام ،وكيف وجد مسلمون بعد ظهور محمد ﷺ حتى بلغوا اليوم ما يقارب 1.6 مليار نسمة ؟ لكن أردنا أن نقول هنا إن الغالبية العظمى من الناس لا تستطيع أن تختار بعقولها كما يختار الفلاسفة والمفكرون ، وفي أعظم دول العالم نجد أن الرأي العـام يـتم صناعته من قبل المتنفذين في السياسة والإعلام . والقول بحرية الاختيار هو شكل بعيد عن الجوهر والحقيقة .

هنري الثامن ينفصل عام 1535م عن الكنيسة الكاثوليكية فتنفصـل معـه بريطانيا ، وفي القرن العشرين تنتصر الشيوعية في عدة أقطار فتحول شـعوبها إلى الماركسية ، ولو كانت الماركسية ديناً يوصل إلى ا لنجحت في تحويل هـذه الشعوب ، كما نجحت الأديان سابقاً،ولكن الفكرة المادية غير قابلـة للاسـتمرار، لأنها تُفقد كل شيء معناه ، ولا تستطيع أن تعطي الإجابة عن الأسئلة الأساسية في حياة البشرية : لماذا نعيش ؟ لماذا نضحي ؟ لماذا القيم والأخلاق .....؟

إن الذي يزعم أن الإنسان يجب أن يختار بعقله فقط يطلب ما هو صحيح ، ولكنه مثالي يعيش في عالم الخيال،ولا يعرف عن أي شيء يتحدث،ولا نستطيع أن نزعم أن الفكرة الناجحة هي الفكرة الصحيحة ، فقد نجحت الشيوعية في أكثر من بلد واستطاعت أن تبني دولاً عظمى ، فكانت فكرة فعالة ، ولكن حتفها كان فـي كونها خاطئة ، ولم يتم اكتشاف خطأ هذه الفكرة الحيوية والفعالة إلا بعد أن دفعت الشعوب ثمناً غالياً، من دمائها وعقيدتها،وفكرها،واقتصادها،فهل يعزيها اليـوم أي اعتذار مهما كان بليغاً نقول هذا لنؤكّد أن الإسلام يرى أنّـه لا بـد مـن حمايـة أساسيات العقيدة الإسلامية ، وهو يقدم مصلحة الأمة على رغبة فرد قد يريـد أن يجهر بفكرة تصدم مشاعر الناس ومقدساتهم . وإذا كان الغرب العلماني لا يهـتم بالدين ابتداء فهل يتوقع منه أن يحميه ؟! ولكن من قال إن العلمانيـات لا تحمـي أساسيات العلمانية ؟!إن من البدهي أن يحمي كل نظام أساسياته ومقدساته ، ولـم يشذ في ذلك مجتمع قديم أو معاصر .وإن اختلفت المجتمعات فيمـا هـو مقـدس وتجب حمايته .

لماذا القانون ؟ لماذا السجون ؟ لماذا العقوبات ؟ نعم لماذا نعاقب من يخالف القانون؟ ماذا لو كان الذي يخالف القانون إنما يخالفه عن قناعة ؟ ولنأخذ الشـذوذ الجنسي كمثال : هب أن فيلسوفاً اقتنع بأن الشذوذ الجنسي حرية شخصية ، وأراد أن يمارس ذلك في دولة علمانية يحظر قانونها الشذوذ والدعوة إليه ، فهل يسـمح له بذلك ؟ وإذا لم يسمح له فأين الحرية ؟ ومن أخطر الممارسة أم الدعوة النظرية إلى الممارسة ؟ في الحقيقة أن الممارسة أقل خطراً من الـدعوة النظريـة ، لأن الممارسة تجعل الأضرار محصورة في شخصين أو أكثر ، ولكن الدعوة النظرية توشك أن توجد القناعات ، وأن تهدم الحواجز النفسية ، فتتحول الممارسة إلى تيار ، فالأولى التشدد مع الفكرة النظرية أكثر من الممارسة العملية ، من أجل حمايـة المجتمع من مرض يمس عقيدة الناس وأخلاقهم . ما يقال في الشذوذ الجنسي يقال في أي فكرة أخرى ، ولا داعي للفصل بين السلوك والفكرة لأن الفكـرة أخطـر وأشد ضرراً . والعجيب أن الذين ينتقدون حد الردة باعتباره يقمع الحرية الفردية، يعلمون أن القوانين في كل العالم تحظر الكثير مـن الممارسـات ، ولا شـك أن إعلان الفكرة هو نوع من الممارسة . ثم هم يستنكرون أن يحمي الإسلام أساسيات العقيدة ، ويزول العجب إذا علمنا أنهم لا يقيمون وزناً للدين والعقائد الدينية، ومن هنا جاء استنكارهم . ثم هم يعلمون أن العلمانيات جاءت لتقصي الدين ، وتبعـده عن الحياة ، ثم هم يزعمون أن ذلك من التسامح الـديني، وهـذه مغالطـة ، لأن التسامح الديني لا يكون إلا ممن يؤمن بالدين بعمق ، ثم هو يتسامح مع المخالف ، أما الذي يعادي الدين فلماذا لا يكون معنياً بفوضى تقوض أسـاس الـدين . وإذا أردنا أن نختبر تسامحهم، فلننظر إلى موقفهم ممن يعمل على تقويض أسس النظام العلماني. وقد يكون من المناسب هنا أن نذكر الطرفة القديمة التي تقول إن أمريكياً افتخر أمام شيوعي بأنه يستطيع أن يشتم كندي الرئيس الأمريكـي حينـذاك فـي ساحات البيت الأبيض ، فرد الشيوعي الروسي بأنه هو أيضاً يسـتطيع أن يشـتم كندي في الساحة الحمراء في موسكو .

ماذا لو اكتشفت دولة ما خلية تُنظّر فكرياً لخيانة الوطن ، لأن هذا الـوطن - ولنقل إنّه أمريكيا - قام على أسس غير عادلة ، ولأنه ظلـم الهنـود الحمـر



واجتثّتهم . نعم ماذا سيفعل القانون ؟ سبق لأكثر من شيوعي أن تجسس لصـالح روسيا على بريطانيا ، أو فرنسا، أو أمريكا، إيماناً منه بالقيم الماركسـية ، مـاذا فعلوا بهم ؟ من قال إن الوطن أو أي شيء آخر أهم من الدين ؟! وإذا كان الوطن بحاجة إلى حماية، فالدين من باب أولى ، لأن الدين هو الذي يعطي كـل شـيء معناه ، وهو الذي يجعل الحياة مبررة، وهو الذي يجعل للقيم والأخلاق معنـى ، وهو الذي يجعل التضحية من أجل الوطن والمبدأ شيئاً إيجابياً وإذا فقـدنا الـدين فعندها سنفقد مبرر الوجود . ويصبح كل شيء بلا معنى .

العالم الجديد

1.بعد سقوط الشيوعية في روسيا ، وبعد قيام نظام ديموقراطي ، أفـرز برلمانـاً روسياً ، وجدنا أن هذا البرلمان أصدر قانوناً ينص على حظر التبشير بأي دين لم يكن موجوداً قبل ثورة 1917م . لماذا ؟ ! لا بد أن لديهم إجابات، ومن المتصور أنّهم أرادوا حماية الأرثوذكسية ، لأن الروس في حالة من الفقر والحاجة، ويمكن استغلال حالة عدم التوازن ، والفراغ الفكري، لصالح جماعات تبشـيرية تملـك المال ، وبالتالي تستطيع أن تـؤثر فـي المدرسـة ، والمستشـفى ، والصـحيفة ...والغالبية العظمى من أي شعب لا تملك القدرات الفكريـة التـي تمكنهـا مـن الاختيار الحقيقي.

2.أول دولة علمانية عرفها العالم ، ألا وهي فرنسا ، لا تطيق أن ترى قلـة مـن الفتيات المسلمات يلبسن غطاء الرأس ، وليس غطاء الوجه ، ويكون التدخل مـن أعلى سلطة في الدولة .لماذا ؟ قالوا لأن هذا نوع من التبشير الـديني الصـامت. والسؤال : لنفرض أن هذا صحيح فما الخطأ في ذلك ، في دولة علمانية ، ونحـن نتكلم عن طالبة وليس عن معلمة ؟ نعم لا شك أن لديهم إجابة ، قالوا: من واجبنا حماية القيم العلمانية ، نعم هم يعرفون أنها مسلمة ، ولكنهم يرفضون أن تعبر عن ذلك حتى في اللباس . قد نفهم إذا قيل إن المرأة المتبرجة تتدخل في خصوصيات الرجال ،وتسيء إليهم بفتنتها ، ولكن ما ذنب المرأة التي تغطـي رأسـها ، ومـا

الضرر على القيم العلمانية، خاصة وأن الاحتشام مطلوب في كل الأديان ؟! ولكن يبقى العنوان هو حماية القيم العلمانية ، ولا داعي للتفسير .

3.تقدمت جماعة فرنسية بطلب لتشكيل حزب يطالب بعـودة النظـام الملكـي ، وبالطبع تكون هذه العودة بإقرار من أغلبية الشعب، وفق النظـام الـديموقراطي الفرنسي . رفض الطلب ،والعنوان هو حماية القيم العلمانية .

4.روجيه غارودي فيلسوف فرنسي، شكك في عدد اليهود الذين قتلوا في ألمانيـا، وقدم الأدلة على أن عددهم أقل من مليون بقليل،وليس ستة ملايين ،كما يزعم. كما وقدم الأدلة على أن أفران الغاز لم تكن موجودة ، وكانت النتيجـة أن قُـدم إلـى المحاكمة ، ولم يكن هو الوحيد الذي يقَدم إلى المحاكمة بمثل هذه التهمة . لماذا ؟ لأن هذه القضية لها قانون يحميها بغض النظر عن المبررات .

5.سلمان رشدي يشتم الرسول عليه السلام ، فتقدم له بريطانيا الحماية ، لأن هـذا من الحريات التي كفلها القانون ، ولو سألناهم : لو كان الكاتب نفسه يتحدث عـن يسوع،أو موسى عليه السلام ،هل يكون ذلك من الحريات التي يكفلهـا القـانون ؟ قالوا : لا ، قلنا: لماذا ؟ قالوا لأن هناك قانوناً في بريطانيا يجرم الذي يجدّف على اليهودية والمسيحية ، وليس هناك قانون يتعلق بالتجديف على الإسلام . نعم العبرة بما يقدسون . وكيف تقدم الحماية إلى دين غير مقدس عندهم ؟!

6.في إسرائيل استطاع حزب كاخ أن يدخل البرلمان الإسرائيلي عبـر الانتخـاب الحر، ثم ما لبث الكنيست الإسرائيلي أن صوت لمنع كاخ من الترشّح للكنيسـت، وهكذا كان . لماذا؟ لا بد أن لديهم إجابة . إن أفكار حزب كاخ تضر بالمصـلحة الإسرائيلية العليا ، من هنا لا بد أن يمنع من الترشيح للانتخابات ، نعم لن يتركوا الشعب يقرر، لأن في ذلك مساً بمصلحة المجموع ، والـذين يمثلـون المجمـوع أخرجوا كاخ من الكنيست . الآن وأنا أكتب هذه الكلمات لفت انتباهي خبـر فـي إذاعة لندن عن منع حزب ألماني يميني من الترشّح أيضاً . (2000/11/10م).

7.الباكستان من البلدان القليلة في العالم الإسلامي التي تمـارس الاختيـار الحـر للسلطات في الدولة ، واللافت للانتباه أنها تتبنى بحزم قانوناً للردة علـى خـلاف

الكثير من الدول في العالم العربي والإسلامي . وهنا المفارقة : الدول الدكتاتورية لا تتبنى قانوناً للردة ، ودولة ديموقراطية يقر برلمانها مثل هذا القانون .لماذا ؟

سيطر الاستعمار الغربي لسنين طويلة على معظم بلدان العـالم العربـي، والعالم الإسلامي . والدارس للتاريخ يلاحظ أن المجتمعات العربية حافظـت علـى دينها الإسلامي واستعصت على التبشير، ولم يشذ عن ذلك بلد واحد ، في حين نجد أن التبشير الغربي نجح في أكثر من مجتمع إسلامي غيـر عربـي ، فقـد دخـل الاستعمار الغربي الفلبين والمسلمين أكثرية ، وعندما خرج كان المسلمون أقليـة ، وفي إندونيسيا كانت نسبة المسلمين تقارب 99% أما الآن فتقارب 95% ، وهنـاك أمثلة عدة في العالم الإسلامي غير العربي ، ولا يوجد مثال واحد لبلـد عربـي . ويبدو أن ذلك يرجع إلى أن العربي أقرب إلى فهم القرآن والسنّة ، وهذا يعنـي أن نجاح التبشير في البلدان غير العربية كان من قبيل استغلال عدم الـوعي بحقيقـة الإسلام . ومن هنا نفهم لماذا تصر باكستان على تطبيق حد الردة ، وكـذلك نفهـم لماذا قام قسيس قبل عام بإحراق نفسه في العاصمة الباكستانية احتجاجاً على حـد الردة .

من يدرس تاريخ التبشير في العالم الإسلامي يلاحظ أن المبشرين يـدخلون إلى الناس من ثلاثة أبـواب : المـدارس والجامعـات ، والجمعيـات الخيريـة، والمستشفيات. أي أنهم يستغلون ضعف الإنسان وحاجته ، فالجمعيات الخيرية تدخل إليه من باب فقره ، والمستشفيات تستغل مرضه ، والمدارس والجامعـات تسـتغل كونه المتلقّي . وهذه الحالات الثلاث هي حالات ضعف تكون اليـد العليـا فيهـا للمبشرين . فهل يليق بدولة تحترم عقيدة شـعبها وقيمـه أن تسـمح بمثـل هـذه الممارسات، تحت ستار حرية الفكر والاعتقاد . وإذا كانت الأمة بحاجة إلى مثـل هذا القانون في يوم من الأيام ، فإنها اليوم أشد حاجة إليه ، لتحافظ علـى كيانهـا ووجودها في عصر العولمة ، الذي يتيح للقوي أن يمارس بطشه على الضـعفاء ، وهو عصر يستطيع فيه الأغنى أن يزيف القيم والأفكـار ، وأن يـزين السـقوط والانحراف . نعم ماذا يملك مليارات البشر في العالم أمام سلطة الإعلام الهائلـة، والتي يسيطر عليها قلة لا يردعها خلق ولا ضمير ولا دين ؟! في منطـق هـؤلاء

يجب أن ترفع كل حماية عن كل الشعوب ، حتى تستطيع قلة من الكبـار أن تعيـد نصب الأصنام ، والتي هي أجمل وأشد جاذبية وفتنة، من بعل ، واللات، والعزى، وفينوس ، وديانا ، وعشتار ، وغيرها من الآلهة المزيفة . ويبقى الإسلام عظيمـاً بتشريعه ، لا تنقضي عجائبه ، كيف لا وهو رحمة ا لعباده ؟!

الخاتمة

فهذه بداية في هذا الاتجاه، والذي نرجوه في مركز نون للدراسات القرآنية أن تتعدد الرسائل في هذا الباب وغيره، ونحن بصدد رصد القضـايا التـي تهـم قطاعات من الناس وعلى وجه الخصوص المثقفين، وطلبة الجامعات. لـذا يسـر مركز نون أن يتلقى الملاحظات والاقتراحات. نكرر الإعـراب عـن اسـتعدادنا لمناقشة أية مسألة لها صلة بالدين الإسلامي، ونهدف في ذلك إلى التعاون مع كل الراغبين في المعرفة، والباحثين عن الحقيقة، ونأمل أن تغطي رسـائل المركـز مساحات من المعرفة التي تتوق إليها عقول وقلوب الصادقين.

وا هو ا وفق